الطاهر وطار

أراه..

(الكتاب الأول)

الحزب وحيد الخلية

دار الحاج موحنْدْ أونيس

ليلي طويل يا غربتي.
والقلب شايق للديار،
يا ربي فرج كربتي

موشح

من أداء بن طوبال عبد المؤمن

منذ اثنتين وعشرين سنة، حاولت هنا الانتحار...

أُحلت على المعاش وأنا في السابعة والأربعين، إحالة سياسية واضحة بيّنة، فقد سبق ذلك مراسلات من المؤسسة العسكرية، إلى مسؤول جهاز حزب جبهة التحرير الوطني، تشكو مما ورد في قصة **الزنجية والضابط،** المنشورة في مجلة الآداب ببيروت، وتلفت النظر إلى وجود عنصر خطير ضمن إطارات الحزب.

ولم يكن مسؤول جهاز الحزب، السيد محمد الشريف مساعدية(1)، دون ذلك، بالمرتاح لوجودي بينهم، فكثيرا ما لوّح بالشيوعية والشيوعيين، وكم مرة أوضح لي شخصيا وأثناء اجتماع المراقبين الوطنيين الذين كنت واحدا منهم، أنه يفضل وجود مشعوذ يكتب الرقى والأحجبة، في صفوف حزب جبهة التحرير على وجود شيوعي لم يضف "مثلك"، ولكنني فهمت... طبعا، لا يقولها صراحة، لكن عينيه، ونبرات صوته، تفصح عن ذلك، ولأنه أيضا كان يعلق على تقرير قدمته عن اتحادية (2) الأصنام.

في مثل هذه الوضعيات ، يحتاج المرء، إلى برودة أعصاب، وإلى التنازل عن كرامة المسؤول، وحساسية الفنان، وعزة المثقف، مقابل عزيمة المناضل وإصراره.

وكم مرة وجدت نفسي في مثل هذه الوضعيات.

كان قايد أحمد (3) المسؤول السابق لجهاز الحزب، يستفزني في كل اجتماع للإطارات.. يركز توجهه نحوي، دون أي لبس، ويروح يعيد حكاية الجاسوس الألماني الياباني سورج، والذي يوجد مثله عندنا ومعنا، لكن سورج الآخر، فحل وشهم وبطل عكس سورجنا نحن الجبان.

عند هذا الحد أضطر لرفع يدي بالتصفيق الحار والابتسام السخي. فيضطر للالتفات إلى الوشاة، وهم معروفون، وهم ليسوا قليلين، فيزأر فيهم: رجال بيض مثل الحليب، وأنتم ما تفتأون تصبغون عليهم التُّهم والألوان.

أخرج منتصرا، وأتفقد محفظتي التي تكون حبلى بالمناشير والأدبيات الممنوعة.

ذات مرة، قلت أتخلص من مضايقات مساعدية، فرحت أؤكد له أنني ومنذ 1956 وأنا مناضل بجبهة التحرير الوطني، وقد أبنت وما أزال، التزامي السياسي، والأيديولوجي، وكل ما هنالك مجرد تهم وإشاعات، نجمت عن صراحتي واعتدادي برأيي، وعشقي للنقاش، وعدم قبول الجواهز.

ضحك ضحكته الصفراء، وسألني عما إذا كنت أعرف أن الحاج عمارة هو أخوه؟

قلت أعرف، واستوعبت ماذا كان يقصد.

في تونس في الخمسينات، وفي عز الثورة، وجدتني أنا وشخصا بدويا في لباسه، في طريقة حلق شاربه، في الخيزران التي لم تكن تفارقه، نشكل الحزب الشيوعي الجزائري المتكون من خلية واحدة، ليس فيها سوى هذا البدوي ذي الأسنان الفضية المتهالكة، وهذا الطالب النحيف جدا، المنقطع عن دراسته ليخدم الثورة.

لا أدري كيف وأين التقينا، ولربما، حصل ذلك في مقر الحزب الشيوعي التونسي، حيث كنت أحضر من حين لآخر بعض الندوات والاجتماعات، وأتلقن على يد عضو المكتب السياسي خميس الكعبي مبادئ الشطرنج.

ربما التقينا هنالك. ولكن ظللنا نلتقي ، أسبوعيا تقريبا، لا لنفعل أو نقول أكثر من تحذير بعضنا من عناصر المخابرات أجمعها أكتعها، ومن العداوة المسبقة التي تكنها لنا جبهة التحرير الوطني.. التي نحن منها، فأنا كنت قياديا في الناحية الأولى لتونس العاصمة مع مصباح، ومحمد دحماني وبورنان وغيرهم، وإذا لم تخنّي الذاكرة

فرفيقـي عمـارة مسـاعدية الـذي صـار الحـاج عمـارة فيمـا بعـد، كـان مسؤول مالية في هيكل ما من هياكل جبهة التحرير الوطنـي.

لم يخامرني الشك أبدا يومها، فـي صـدق رفيقـي، ومـا إذا لـم يكـن مندسـا، مكلفـا بمتابعـة مـن يتصـل بـالحزب الشـيوعي التونسـي، مـن الجزائريين، ولربمـا ليسـوا أكثـر مـن واحـد، هـو هـذا الشـاب الباديسـي الزيتونـي، الريفي، البربري.

كمـا لـم يخـامرني فـي السـعيد صـيفي، الـذي لا أدري كيـف وجدتـه يكتسـب ثقتـي، ويصـبح صـديقا حميمـا لـي، بـل، رفيقـا عزيـزا، ومعلمـا بارعا، يدرسني مبادئ، الاقتصـاد السياسـي، ويحدثني كثيرا عن إنتاج الإنتـاج، وإنتـاج وسـائل الانتـاج. والقيمـة وفـائض القيمـة، ويقـوم بالتحليلات لما يجري في العالم وبالتنبؤات، لما سيجري.

سألني، أتدري لماذا انتصر فدال كاسترو وتشي غيفارة؟

قلت لا. لقد حاربـا الرجعيـة والماريكان وانتصـرا، وهذا كل مـا فـي الأمر، ربما ساعدتهم الظروف والمعطيات؟

انتصـرا، لأنهمـا اسـتعملا تسـمية حـزب العمـال، لحركتهمـا، ولـم يستعملا اسم الحزب الشيوعي، وهذا مهم جدا، في هذا العالم المتخم حساسية، لكلمـة الشيوعية، وفـي العالم العربـي والإسـلامي، خاصـة،

حيث تجند الجميع للتنفير من هذه الكلمة، ينبغي الاستفادة من انتصار كوبا.

لكن ثق _ ونحن أحياء، نرى ونعيش، وسنعرف، ثق أن هذا الأمر لن يتكرر في أمريكا اللاتينية، وفي كثير من أنحاء العالم، حيث مصالح أمريكا. لقد استوعبت أمريكا الضربة، ولن تسمح بتكرارها ثانية.

لم يكن عمي السعيد يحسن العربية، ولكنه يعبر عن أفكاره وآرائه جيدا، وبصفاء خارق للعادة... كان من العمال المهاجرين في فرنسا، تعلم في مدرسة الإطارات العلياء للحزب الشيوعي الفرنسي، وتزوج من كاثوليكية متعصبة، سرق منها ولديهما الجميلين، وهرب إلى تونس، ليهبهما للثورة، ويحمل هو السلاح.

سبقه ملفه، فكان محل اهتمام القيادة.

دعاه الرائد قاسي، وتعرف عليه جيدا، فوجه إليه النصيحة التالية: اغرب عن وجهي، ولا تظهر ثانية، فلو لم تكن ابن قريتي وعشيرتي، لقضيت عليك.. إنك محظوظ، بوقوع ملفك بين يدي.

ظل عمي السعيد، يصنع الدمى، من بقايا قماش الخياطين، وجلد الإسكافيين، ونجارة النجارين. (وقد وضفت جزءا كبيرا من حياته في شخية زيدان في رواية اللاز).

لا أدري ما إذا كان الحاج عمارة مساعدية، ما يزال في محيطي، في هذه الفترة أم لا، إلا أن هناك صديقا آخر، كان يلازم عمي السعيد صيفي. انكفأ على نفسه فيما بعد، فظل في التعليم، إلى أن تقاعد.

اكتشفت فيما بعد، وأنا أنضج في الحياة السرية شيئا فشيئا، أن الفرد الجزائري، لا يهنأ له بال، حتى يشي بما يعرف عن أصدقائه الحميمين، أو أقربائه الأعزاء، ولو لحذائه، إذا لم يجد سلطة ما في الطريق.

لكن الحاج عمارة رفيق الدرب وشريكي في الحزب وحيد الخلية، يبدو أنه أجل الوشاية، إلى ما بعد الاستقلال، وربما استدرجه أخوه، أو وثق فيه، وهو البارع في سرد شعارات اليسار، حتى أنه أقنع كثيرا من رفاقنا اللبنانيين والمصريين والفلسطينيين بأنه، لا يختلف عن فيدال كاسترو إلا في شكل اللحية، وأن كل الشيوعيين في العالم، أذكى من الشيوعين الجزائريين، وأكثر وطنية منهم.

- يسلم عليك الحاج عمارة.

- تلك حماقات الشباب يا سي محمد الشريف.

كشر عن أنيابه المسوسة، ولكن يبدو أنه حفظ تلكم الصفحة، في موضع لا يغيب عن البال، وترك الأمر لمجموعة زبانيته، ليواصلوا اضطهادي ومضايقتي، وحتى محاولة قتلي.

وجدت نفسي مبعدا بطريقة لبقة من الجهاز المركزي، إلى محافظة الجزائر، كمراقب جهوي، بعد أن كنت مراقبا وطنيا.

استوعبت الضربة، وقلت، ربما، أجد في هذه المحافظة، التي يرأسها شاب في مثل سني، ذو مزاعم تقدمية، وعلاقات واسعة مع مختلف الفئات السياسية، ما قد يكون نواة لحزب الطليعة، طبقا لنصوص ميثاق الجزائر (لم يكن الميثاق الوطني قد ظهر يومها)، وما قد يكون أداة ضغط بين يدي، ربما حلمت بتوسيع حزبي وحيد الخلية، إلى محافظة كاملة، وكان هذا الهاجس يسكنني حتى قبل انقلاب 1965، حين كنت عضوا في لجنة التوجيه والإعلام، مع عناصر تقدمية مثقفة، مجاهدة، محمد حربي (4)، حسين زهوان (5)، محمود التلمساني، جميل بن ديمراد.

قمت بجولة في عدد من محافظات الوطن، ومسحت كل المزارع المسيرة ذاتيا على مستوى ولايتي الجزائر والبليدة، واستخلصت، أن الهياكل الحزبية الحالية، لا تستجيب، لمتطلبات الاشتراكية، ولا حتى البناء الوطني السليم.

هذا الحزب كائن فطري هلامي وحيد الخلية، لا أمل يرجى منه كحزب.

لقد كان التواجد في حزب جبهة التحرير الوطني، تسببه فقط، المشاركة في الثورة التحريرية، بهذا القدر أو ذاك. وأبعد ما يكون عن انتماء فكري عقائدي، أو على الأقل سياسي. ولا يمكن إطلاقا تحويل تجمع كبير، إلى حزب قائد، منضبط، تحكمه ميكانيزمات نظامية صارمة. ربما يمكن خلق منابر، داخله، تكون نوعا من الممارسة الديموقراطية، داخل أسرة كبيرة.

فقلت، لم لا نخلق من خلال لجان التوجيه والإعلام، قوة موازية، شبه علنية، شبه سرية، تتمتع بالوعي الطبقي، وتؤمن بما في ميثاق طرابلس وميثاق الجزائر، ونوليها رعاية فكرية، خاصة..؟

قدمت تقريرا مفصلا في ذلك، إلى الأستاذ حسين زهوان مع مشروع مفصل أيضا، لمجلة تحمل عنوان الاشتراكي، وذلك قبل صدور مجلة الاشتراكي المصرية بسنوات، (كان ذلك باللغة العربية، ولربما لهذا السبب، أهمل التقرير، ولم يستوضحوني حتى مجرد التوضيح)... ولشد ما كانوا يجتمعون، ويثرثرون في المكاتب، (مع أن نواياهم جد حسنة) ولم يكن ذلك من طبعي أبدا.

لم أنجح في خلق حزب داخل حزب، وقد كان ذلك ممكنا جدا، لو كان رفاقنا بما فيهم الرئيس أحمد بن بلله، يتوقعون ما ينتظر البلاد من تدخل البدو الأعراب بثياب عسكرية.

حملت الهاتف، فطلبت من الحاج بن علّة (6) أطال الله عمره، أن يلحقني، بلجنة الرقابة، فحصل ذلك، حيث أمرني بالاتصال بسي محمد بوشعيب، وهكذا، كنت أول مراقب وطني للحزب، بعد المؤتمر مباشرة، سنة 1964، ثم لحقني محمد الرايس(7) وكان مسؤولا للحزب بقسنطينة، ثم رابح جرمان (8) الذي أبعد من الأمانة العامة لاتحاد العام للعمال الجزائريين، ومحمد الطاهر الشافعي الذي كان أمينا وطنيا مع جرمان.

ما أن أجريت مسحا على المحتوى البشري لمحيطي الجديد، حتى أصبت بخيبة كبيرة...

كانت محافظة الجزائر الكبرى، بعد انقلاب 1965 ، مؤطرة بعصابة من الجهلة، وأشباه الأميين، وذوي الأخلاق الفاسدة، أمثال منسق اتحادية باب الوادي، الذي يمارس الفتوة على مستوى العاصمة، حيث يشرف على استخدام عدة نساء. لا تراه إلا محاطا بكوكبة من زبانية، حماته. يدخل مطعما أو حمّاما أو مقهى، فينتصبون أمام الباب للحراسة.

باستثناء عنصر أو اثنين يوجدان في المحافظة، فإن معظم مسؤولي القسمات والاتحاديات، لا يلبون إطلاقا، حاجيات مدينة كبرى، بها جامعات، وسفارات، ووزارات، وثانويات. وطلبة وأساتذة.

الجزائر عاصمة الثورة، وعاصمة إفريقية. كما يقولون.

كان الجهل ينحدر بالتسلسل التراتبي، من القمة إلى القاعدة، ويعود صاعدا كذلك من أسفل الهرم، إلى أعلاه، وكانت مطاردة المثقفين بتهمة الشيوعية والانتماء لحزب الطليعة الاشتراكية متواصلة، وقد استعمل حتى العنف البدني، مثلما جرى أثناء مؤتمر نقابة المعلمين، حيث ضرب منسق اتحادية حسين داي وهو ملاكم (بسلامته) أحد النقابيين وأظنه محفوظي من البليدة، ضربا أبعده حتى اليوم عن الساحة السياسية.

كما أن رابح جرمان رحمه الله وسامحه، أُجبِر على أن يجند عمال الميناء، (وهو في الأصل عامل ميناء دوكير)، ليقمعوا إضراب طلبة جامعة الجزائر، بعد الإعلان عن حل اتحاد الطلبة الجزائرين 1968. فظل المسكين حزينا ما تبقى من عمره.

ضمن هذا الخضم، وبعد مغادرة بعض المثقفين الذين لا يخفى على أحد أن لهم ارتباطات عضوية بالأجهزة، وقد صار بعضهم فيما بعد إطارات دولة ووزراء.. ربما كنت الوحيد في إطارات الحزب

المتبقية، الذي يرى ويميز، ويحاول أن يدلي بدلوه، ويقتطع ولو منبرا في حجم موقع القدمين. أشهر سيفا من خشب، وأهتف، أمام طواحين الريح: إلى يا سانشو، لنجهز على آخر ما تبقى من الأعداء...

أعددت قائمة، من عناصر مناضلة مثقفة، ذات نزعة اشتراكية، تؤمن بالثورة الزراعية، وبالعدالة الاجتماعية.

تأملها السيد المحافظ، وزكاها شفويا، ووعد بالسعي لإنقاذ الوضع، وكان معظم من في القائمة ممن يتظاهر بالتقرب منهم، وبمودتهم، وهم كلهم من بقايا المهيكلين في خلايا حزب جبهة التحرير الوطني.

فجأة وجدت نفسي، خارج حزب جبهة التحرير الوطني. أصدر مسؤول الحزب، مقررا بتعييني منشطا لاتحاد الفلاحين الجزائريين، بعد مؤتمره التأسيسي مباشرة.

قبل أن أصل مقر الاتحاد، وأجتمع بأعضاء الأمانة، تلفن السيد مسؤول الحزب، يعلمهم، بأنه أرسل إليهم شيوعي، أحمر، خطير، وأن الحذر مطلوب. لا أدري ما إذا كان استعمل لفظة كلب أم اقتصر على الأوصاف السابقة؟

حاولت البدء من الصفر، فأنشأت فوج عمل ودعم للاتحاد، يتكون من أساتذة في الجامعة وصحافيين، ومن الرسام الكبير محمد خدة، (والحق أقول أنهم كلهم من اليسار، ولربما كان الكثيرون منهم

مهيكلين في حزب الطليعة الاشتراكية، لم أقصد ذلك، ولكن هؤلاء هم المتوفرون على الساحة السياسية في مناصرة الاشتراكية والإصلاح الزراعي)، ويبدو أن الرئاسة، استثيرت، فقد كان أحمد حوحات، مستشار الرئيس، يتفقدنا تقريبا يوميا، ويبارك في الظاهر عملنا... وأنا أثق في نزاهة وصدق هذا الرجل، مهما كانت مهمته.

أنشأت للاتحاد حصة إذاعية، ومجلة الفلاح والثورة، ومطبعة صغيرة (أوفسيت مكتب علمت أحد أبنائهم كيف يشغلها) لطبع بياناتهم ومنشوراتهم، كما أقمت معرض صور لقرى اشتراكية قمت بزيارة لها وتصويرها، وقد أوحت لي هذه الجولة برواية " عرس بغل " وكان السائق الذي معي، وهو شبه أعمى لا يبصر في الليل، فأضطر للسياقة بنفسي، أحد أبطالها، ***خاتم*** الذي ينظر إلى الجدران الأربعة في الوقت الواحد...

لم يكن يهم الأمين العام وبعض زملائه، سوى أن ينتزعوا مني السيارة التي اصطحبتها معي، والتي كانت في حوزتي منذ سنوات، أو الضرب على فخذ أحد أعضاء الفوج، ضربا مشبوها قائلا بصوته الأخن: " قرّرِرِيني يا دكتووور". وكان قد أشاع، والله أعلم، أنه ابن خالة سي محمد الشريف.

وليس في هذه الهيئة، سوى أمين وطني واحد هو الحاج خويلد ، من ورقلة يؤمن بالثورة الزراعية، وهو عضو في إحدى التعاونيات

الفلاحية، وقد استقال فيما بعد. أما الباقون، فأشباه مهجرين كانوا مداومين في قسمات جبهة التحرير، سد بهم فراغ، ليس إلا.

لا أذكر كيف أُعِدت إلى جهاز الحزب، وإلى دائرة الرقابة، لأواصل السباحة، ضد التيار، من جديد، وتحمّل كل ما كان يجب أن يتحمله اليسار. من أقصاه إلى أقصا. مخلّصا مطهرا. ليس سياسيا فحسب، بل، حتى ثقافيا، فقد انعكست وضعيتي في الجبهة، حتى على أنتاجي الثقافي.

جاء مدير الإنتاج في التلفزة السورية، المخرج لطفي لطفي، إلى الجزائر، واستدعاني مدير التلفيزيون يومها، زميلي في الدراسة بمعهد بن باديس، السيد حراث بن جدو، وعرض علي مشروع لطفي لطفي، تلبية لاقتراح بن جدو عندما كان في سوريا، وهو إنتاج روايتي "الزلزال" فيلما مشتركا.

فرحت. فكثيرا ما برمجت رواية من رواياتي، واعترضت عليها قوة خفية، أحيانا أعرفها، وأحيانا لا أعرفها.

دعاني الأستاذ رضا مالك(9) عندما كان وزيرا للثقافة، وانهال علي شكرا وثناء، بسبب الزلال، فقد فُقت فيها في وصف المجتمع الجزائري وقسنطينة بالذات، _ حسب قوله، كل الكتاب الجزائريين.. وأنه وهو يقرؤها شم رائحة التراب القسنطيني.

قلت له أتمنى أن يتحول هذا الإعجاب، إلى إنتاج فيلم، عن قسنطينة قبل أن تنهار، فهي تفعل ذلك، يوما بعد يوم.. حمل الهاتف، وأصدر الأوامر لمدير الديوان الوطني للإنتاج السينمائي.

ما أن بلغت منزلي، حتى رن جرس الباب، وفاجأني ساعي البريد، بتلغرام.

الرجاء الحضور لمقر الديوان. مدير الديوان الوطني للإنتاج السينمائي. دمبري. (أخ محمد الصالح دمبري).

اشترطت، على السيد المدير، أن يضع السيناريو، الأديب المصري الكبير، الأستاذ ألفريد فرج، المقيم بيننا أيامها، والشديد الإعجاب بالرواية، وأن يخرج الفيلم، صلاح أبو سيف.

سألنا عمن يكون صلاح أبو سيف، وهل له أفلام سابقة، وهل هو معروف في عالم هذا الفن؟ السيد المدير، معذورا، فقد كان مدير وحدة توزيع الإسمنت، وأتت به المعجزات الجزائرية إلى ميدان لا يعرف فيه من يكون صلاح أبو سيف.

ترددت رفقة الصديق المرحوم ألفريد فرج، عن السيد المدير، عدة مرات، ثم انقطعت صلتنا، أشهرا فسنوات، وكدنا ننسى الموضوع، إلى أن تواجدنا ذات مرة بفندق أليتي (السفير اليوم) في موعد مع الأستاذ صلاح أبو سيف.

اتضح أنه مدعو من الديوان، وهذا للمرة الثالثة، وأنه طُلب منه إنتاج رواية ***نهاية الأمس***، للروائي ***عبد الحميد بن هدوقة***، ولكنه رفض، لأن النص، ليس من النوع الذي يستهويه.

لم يرد الحديث إطلاقا عن رواية الزلزال.

نظر إليّ ألفريد، مبتسما، وغيّرنا موضوع الحديث، وفي خاطر كل واحد منا، المثل الشعبي القائل: "البراني على برّه".

عندما جاء لطفي لطفي بعد سنوات، فرحت من قلبي وأيّم الله، وقلت: الصابر ينال، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

وهذه بركة الثورة الزراعية، والظروف التي خلقتها، ولا شك أن التقارب بين السلطة واليسار الجزائري، بدأ يؤتي أُكله.

وقعت العقد مع مدير الإنتاج الأستاذ القدير الدكتور أحمد بجاوي، واتكلنا على الله، أنا ولطفي قاصدين قسنطينة، التي سحرته، أكثر مما كانت سحرتني، وفي كل خطوة كان يستعيد فقرة أو جملة من رواية الزلزال، فكانت سعادتي تشتد، وكنت أنتفخ زهوا.

وعندما عدنا إلى فندق سيرتا، فوجئنا بعضو اتحاد الكتاب الجزائريين أحمد حمدي، يقيم في الفندق أيضا، ويتحدث عن مهمة مستعجلة، أتت به.

أحمد حمدي هذا سبق أن تواجد بطاشقند، في اجتماع لاتحاد الكتاب الإفريفيين الآسيويين، وعاد يصارحني، بأن إيغور يرماكوف، مترجم أحدى رواياتي إلى الروسية، عمل جاهدا على ترشيحي لجائزة اللوتيس، لكن، هو سي أحمد عضو اتحاد الكتاب الجزائريين، ساند ترشيح توفيق الحكيم.

"ما طاحت في كرش عدو". قلت.

لم يخطر ببالي قط، أن أتشاءم لظهور أحمد حمدي، وكنت قد نسيت، حادثة طاشقند، وحسبتها، على الجهل والسذاجة، وقوة حظوظ توفيق الحكيم، أمام حظوظي أنا. إلى أن تواجدنا الليلة القادمة، في مطعم "البطة" بأولاد فايت، مدعوين من طرف السيد حراث بن جدو، وكنا أربعة، أنا ولطفي وحراث مع بجاوي، مع أنهم كانوا تحدثوا عن دعوة العربي الزبيري أمين عام اتحاد الكتاب الجزائريين، والمستشار المقرب لمحمد الشريف مساعدية.

اعتذر سي العربي.. أعلنوا ذلك، بحزن شديد، وكان جو من الثقل، يطغى على الجلسة، إلى أن قالوا في ختامها، إن المشروع فشل، بسبب رفض رئيس الاتحاد له.. لأن صاحب الرواية شيوعي.

في مثل هذه الوضعيات، تلعب قوة أعصابي الدور الأساسي، فتنقذني من الانهيار.

بعدها وأنا محال على المعاش، أشكو ضيق الجيب، وضيق الروح، تواجدت في موسكو، فدعاني للغداء عظيموف، مسؤول اتحاد كتاب إفريقيا وآسيا في اتحاد الكتاب السوفياتي، وفي الأثناء عرض علي رئاسة تحرير مجلة **اللوتيس**. كان رد فعلي الأول الرفض، واقترحت بدلي رشيد بوجدرة، فهو أحق لأنه يتكلم لغات عدة، إلا أن الرجل ألح مضيفا: نعلم أنك صحافي، وأن لك تجارب في الصحافة السياسية والصحافة الأدبية، وأنك متقاعد. ثم إنك معروف في العالم العربي وفي الجمهوريات السوفياتية.

أصارحك، يا رفيق عظيموف. أنا جئت من بلدي وعائد إلى بلدي، لست فلسطينيا أو عراقيا، أو أي لاجئ سياسي آخر، حتى أقرر مصيري وحدي، أقترح عليكم طلبي من اتحاد الكتاب الجزائريين، فتكونون بذلك ضربتم عصفورين بحجر واحد، متنتم العلاقة مع الاتحاد، وحصلتم علي مرتاح الضمير. بعد عودتي بأقل من أسبوع، جاءني الملحق الثقافي في السفارة السوفياتية، وأعتقد أنه كان يحمل اسم نانابيف، أو ما شابه. جاء متأسفا، لكون رئيس اتحاد الكتاب الجزائريين العربي الزبيري، رفض اسم الطاهر وطار، واقترح بدلا عنه مولود عاشور... نحن لا نبحث عن جزائري، ولكن عن اسم له تواجد في إفريقيا وآسيا. قال الملحق الثقافي، بهذا أجبته، فما رأيك؟ قلت له، آسف لا أقبل المنصب.

كان ترددي في الحق لا يعود، إلى السبب الذي ذكرته فحسب، إنما لكون رئيس التحرير الحالي فلسطيني، وهو زياد عبد الفتاح، وأعلم ما لهذا الرجل من علاقة، مع أبي عمار، وقد حذرني، فوق ذلك، الصديق الشاعر العراقي سعدي يوسف. وقد كنا معا في موسكو، لما قدم لي العرض.

لكل شيء ثمن، وأنا ما أنفك أدفع ثمن اختياري الإيديولوجي. ولربما يعود جلَدي، إلى عدم انتظاري للرحمة من أعدائي الطبقيين. لعلني، قلت في نفسي، إن هذا من حقهم، في إطار المعركة التي نخوضها.

سي العربي كما يقولون، سبق وأن ارتطمت به، في قضية تورط فيها هو ومساعدية والأمين العام السابق لاتحاد العمال المرحوم بن يقوس.

راود سي العربي، السيد بشيري صالح مسؤول الفرع النقابي بشركة بريتش بيتروليوم، البريطانية، متمنيا منه أن تشتري له الشركة رافعة، وسيكون له من الشاكرين، ويسمح له بذلك، بالعودة إلى قيادة الفرع وينصبه مسؤولا عنه.

انساق بشيري في اللعبة، وكان يخبر مسؤول الحزب، ومسؤول العمال، بذلك، ويُسوِّف محافظ الحزب، السيد بن قانة وهو شاب ممن

جلبهم قايد أحمد إلى الحزب، ليضرب بهم اليسار، ما يفتأ يردد، كلما كنا معا: الثورة تضرب.

حان موعد الانتخابات. ترشح صاحبنا. نجح وفاز بالمرتبة الأولى. أوقف عند حده:

إما الرافعة وإما لن ننصبك، ليس دخول الحمّام مثل الخروج منه.. يا سي فلان.

الشركة تقول لكم اشتروا الرافعة وسنشغلها، رغم أننا لسنا في حاجة إليها، كما شغلنا لكم الشاحنة مرة باسم سي العربي، ومرة باسم أبيه، والضاغطات التسع، باسم خال سي العربي، وغيرها.

لم يطل الأمر كثيرا ليجد صاحبنا نفسه، في غياهب السجن، متهما بسوء التسيير.

ولسبب ما كلفني الحزب، أنا والمرحوم الزميل الرائد سليماني موح أوعلي، لنحقق في المسألة.. والغريب أنه لم يطلب منا أي شيء سوى البحث عن الحقيقة.

ولم تكن الحقيقة في حاجة إلى جهد كبير، فقد كانت ولاية سكيكدة كلها تتحدث بها.

الحقيقة المسكينة.

والـي الولايـة المجاهد دحو ولد قبليـة، (حاليا وزيـر) وقائـد القطـاع العسـكري، وقـد نسـيت اسـمه وهـو صـديق يحترمنــي جـدا، ووكيـل الجمهوريـة، ومسـؤول منظمـة المجاهـدين، وكـل النـاس تعـرف لمـاذا يوجد بشيري في الحبس. وأكد وكيل الجمهوريـة، أن المبلـغ المتهم بـه المعنـي بسيط وتافه، ولا يلفت إليـه النظـر فـي ظـل الظـروف السـائدة مـن نـدرة المـواد الاسـتهلاكية، وضـرورة الشـراء بـدون فـاتورة، خاصـة للبطـاطس والبـيض، ثـم إن الحـزب، كـان يعقـد جمعياتـه العامـة علـى حساب النقابة.. ولكن مادامت التهمة جاءت من مؤسسة الحزب، وما دامـت التهمـة تتعلـق بسـوء التسـيير، فإنـه لا يسـتطيع إطـلاق سـراح الرجل، إلا بسـحب الحـزب لشكواه.. وهـذا مـا كنـا نقترحـه أنـا وزميلـي المراقب "شيري بيبي"، كما كان يكنّى من أيام الثورة. ولكن لا تعليق على تقاريرنا من طرف المعني الأول.

وذات مرة، وأنـا عائد إلـى مدينـة سكيكدة مـع السائق، انفـتح غطـاء محـرك السيارة، عرْض الطريـق، ولحسـن حظنـا أننـا كنـا فـي طريـق مستقيم، ولم تقابلنا أية سيارة قادمة.

تميعـت مهمتنـا، وقضـى صـاحبنا مـا يزيـد عـن السـنتين فـي سـجن الكدية بقسنطينة. وظلت أسرته الفقيرة، كما أكد لـي وكيل الجمهوريـة، تعاني الفاقة والعوز.

استفسرت عنه أخيرا فقيل لي إنه انتقل إلى عالم الرحمة والعدل.

السيارة، كانت في ورشة الحزب للصيانة، ونعرف جميعا العلاقة بين مسؤول الورشة وبين الطقم المحيط بمسؤول الحزب، ومع مسؤول الحزب بالذات.. وقد أكدت الخبرة التي قام بها السائق ناصر، أن المسألة تتعلق بتخريب متعمد.

"طاق على من طاق".

يقول الجزائريون، وأنا ربما آخذ حقي من خصومي سلفا، على الأقل، بصمودي وإصراري وطهارتي، وتطابق أفكاري مع سلوكي. ولهذا لا أشعر بأكثر من خسارة معركة أمامهم، وليس خسارة حرب.

إلى أن جاءت مؤتمرات المنظمات الجماهيرية الخمس: العمال، الفلاحون، النساء، المجاهدون، الشباب.

كنت عضو اللجنة التحضيرية، لست أدري لماذا. فقد كنت مهمشا أيضا في عهد سي ***محمد الصالح يحياوي***، طال عمره، رغم أن الرجل زميل دراسة، في معهد الإمام عبد الحميد بن باديس، وعملت معه، في قيادة الولاية الأولى، أثناء توقيف القتال، مسؤولا عن الإعلام، وعانينا معا التهميش بعد مؤتمر جبهة التحرير الوطني في 1964، حيث كان يضحك عندما أقول له إننا في رواق الموت. (أعتقد أننا همشنا كمعربين، وليس أكثر).

همشتني في عهده، مجموعة من المعربين، لا يحسنون سوى انتقاد غيرهم وحبك المكائد، اصطدمت مع بعضهم في تونس، عندما قدموا

لي دستور حزب البعث العربي، فأبنت عدم اقتناعي بما ورد فيه، مستعملا المثل التونسي: كافر ولا نصف مؤمن.

إذا كان لا بد من وحدة، فلتكن وحدة الطبقة العاملة، وإذا كان لا بد من الاشتراكية، فلنؤمم وسائل الإنتاج. إلى غير ذلك مما تمكنت من معرفته كعضو قيادي في الحزب وحيد الخلية.

كذلك اصطدمت معهم، عندما هاجمت ميشال عفلق، في جريدة *الأحرار* التي كنت كل شيء فيها. (وقد طرد بن بلّة بسبب ذلك، ميشال عفلق الذي يظهر أنه دخل الجزائر متسللا).

جئت من قسنطينة إلى العاصمة، ولسبب ما وجدتني في مكتب تابع للمجاهد الأسبوعي في نهج الحرية، وأعتقد أن أحدهم، قادني، ربما ليباهوا بي، أو ليوسعوا الحلقة.وجدتني ضمن حلقة يتوسطها ميشال عفلق، محْني الظهر، مطأطأ الرأس، يتحدث هامسا، وكأنما يلتقط كلماته من بين أفخاذ أحدهم.

من بين المتحلقين: المرحوم يوسف فتح الله، ومجموعة أخرى (أحتفظ بعدم ذكر أسمائها)، ظلت تطفو، وتغطس، إلى أن تفرّدتْ بسي محمد الصالح يحياوي.

شيء من العروبية. قليل من العروشية.

أتذكر ما كان يقوله لي المرحوم الصديق إبراهيم كابويا، وهو أكثر المسؤولين الذين تعاقبوا على جبهة التحرير الوطني، ديموقراطية وتسامحا، وتفتحا، عن عقلية قومه أولاد دراج الذين منهم سي يحياوي.

" متعنتون، متعصبون لرأيهم، إلىدرجة أن أحدهم لما وجد الوادي حاملا، وكان يهم بقطعه، استخرج خنجره البوسعادي، وقال: انعدي. فابتلعه الماء.".

وجدتني عضوا في اللجنة الوطنية لتحضير المؤتمرات، مع دهاقنة الحبك والنفث في العقد: محمد الشريف مساعدية رئيسا بالنيابة عن محمد الصالح يحياوي. عبد الرزاق بوحارة. صالح قوجيل. آيت وازو، وإذا لم تخنني الذاكرة، يوجد بيننا محمد بورزام مسؤول الشبيبة.

تنبهنا، آيت وازو وأنا، وكثيرا ما عملنا معا في الرقابة، إلى مؤامرة تبدو بريئة ، يحيكها بوحارة ومساعدية، فقد قرروا أن يدعى لمؤتمر المجاهدين، كل ضباط الثورة التحريرية، من البسيط، إلى العقيد...

أهو مؤتمر منظمة، يحضره مهيكلون، يمرون على مؤتمرات محلية وجهوية، ويدعى إليه بعض ضيوف من القادة الأوائل، أم هو مؤتمر تأسيسي نفتح فيه مصاريع الأبواب والمفاجآت؟

من المسؤول عن الانضباط؟

جن جنون مساعدية، وأصيب بوحارة بالذعر، لسرعة التقاطنا لإشاراتهما الخفية، وراح صالح قوجيل يفلسف في الأرقام، والإجراءات، ويتصفح الأوراق الجميلة التي يحسن توضيبها، وأعتقد أنه لم يتفطن لما كان يدور بيننا.

كنا نعرف أن المجاهين، استُعملوا في وهران في 65 ضد بن بلله، وأنه سبق أيضا (ولا أذكر بالضبط متى كان ذلك) أن تمت محاولة التشويش على بومدين.. وأكثر من كل ذلك، لم يبْن أصحاب الاقتراح–القرار، مشروعهم بناء منطقيا، وكنت شخصيا، على دراية بموقف مساعدية من الحركة، التي يرأسها الرئيس عباس فرحات، ومن بيان أنصار جماعة ديسمبر، الذي كنت أيضا على دراية، بمن وراءه، وبالعلاقة بين ما ترتب عن البيان وبين جماعة فندق السرايدي المعلنين وغير المعلنين.. ولقد جاءت رواية الحوات والقصر انعكاسا للأزمة السياسية في 1973/1974.

بالمقارنة بين بومدين، وطهارة الأفكار الاشتراكية التي يعلن عنها، وبين خصومه من جماعة فندق السرايدي بعنابة، كان لا بد من حماية بومدين، وسأتحدث ربما في الأجزاء القادمة، عن حركة قمت بها أنا والطاهر بن عيشة، تتعلق بمنشور صدر ولا يعرف مصدره، كان لهذه الحركة نتائج مهمة.

ثم إن عبد الرزاق بوحارة، (كما استنتجت من بعض سلوكاته) من النوع الذي ينبغي أن نحذر منه، ونبعد كل ما هو قابل للاشتعال من حوله.. مثلما نفعل ذلك تماما مع طفل غير مسؤول.. معجب كثيرا بنفسه، لا تجد أثرا لإنجازاته وهو مسؤول كسفير أو كوالي أو كوزير، هيّاب أيضا، يحيك الفتن، ويتبجح بنجاحه فيها، حدثت لي معه أثناء المؤتمر الخامس حادثة، جعلتني أصنفه إلى الأبد، هو ومجموعة ممن يسمون بإطارات الأمة المرتبطين بالحزب، والذين لم يتواجدوا في القاعدة، ولا يعرفون تلقي الأوامر والانضباط في تنفيذها، وإنما ينزلون فقط من السماء، بلا خبرة ولا تجربة ولا دراية، أصنفهم، بالزنابير، يدخلون خلايا النحل، يعكرون صفوه، ويلعقون العسل، وإذا ما بنوا خلية، فهي بدون عسل.

نودي على أسماء لجنة الصياغة للجنة اللائحة العامة، فكنت ضمنها، مع محمد معزوزي، صالح الونشي، عبد الكريم حسني، الهاشمي هجرس، إذا لم تخني الذاكرة. أقحم بوحارة نفسه، وظل معنا حتى بقينا ثلاثة للصياغة النهائية: عبد الكريم حسني، بوحارة، أنا.

مشت الأمور، كما هو مقدر لها، وكنت المحرر، كالعادة، إلى أن بلغنا فقرة المؤتمر الاستثنائي، وقد وردت الفكرة في النقاش العام للجنة وفي بعض كلمات المتدخلين، أثناء المؤتمر، وناقشناها داخل لجنة الصياغة، وكنت المحرض والمتحمس للفكرة، بنيّة أن يكون

المؤتمر الخامس هذا، والذي هو في الحقيقة ليس مؤتمر حزب، إنما مؤتمر إطارات الدولة، ساهم فيه كما كنا نقول، البعض من حزب جبهة التحرير الوطني، مجرد مرحلة انتقالية، تظل قراراته، في انتظار التصديق النهائي.

حوالي الساعة السادسة صباحا، نهض بوحارة وكان عبد الكريم قد اعتذر بالتعب، قبل نصف ساعة، وهو فعلا مريض بقلبه، وقال:

بوحارة لا يقع في مثل هذه الفخاخ.

يا سي عبد الرزاق، تأكد لي، أنه لا مكان لي في هيكلة الحزب القادمة، أعلمني بذلك أحد "العلماء" ، أما أنت فتكون في اللجنة المركزية، ولربما في المكتب السياسي، وغدا تصبح وزيرا، وبالتالي، تتحمل مسؤولية مصير الجزائر، بدءا من اللحظة.

السلام عليكم. افعل ما تشاء.

انصرف وتركني أفعل ما أشاء.

تواصل خلافنا حول ضيوف مؤتمر المجاهدين، ورفعت الجلسة دون أن يسلم أي طرف في قناعاته، وعندما استأنفناها في المساء جاءت التعليماتت من فوق، (الرئاسة أو يحياوي) تأمر بأن لا يكون المؤتمر، فرصة للتشويش.

رفعت رأسي، أبحث عن وسائل التصنت، أو الينّ الياباني كما يقول إخواننا المشارقة عندما يتواجدون في قاعة مغلقة، حيث يروحون يتساءلون عن أسعار العملات، وسعر الينّ بالذات.. ثم نظرت إلى أرزقي آيت وازو، وقلت في نفسي، إن كان هو، فحسنا فعل.. كما قلت، ربما كان تعييني في هذه اللجنة أتى من خارج الحزب.

لم أسلُم أثناء مؤتمر منظمة المجاهدين من التحرشات ومن الغمز واللمز، حتى أن بعضهم قال لي علنا، نحن كنا نجاهد يا سي وطار، ولم نتمكن من تلقي العلم مثلك.

كنت أحترم هذا السيد، وهو من ولاية بومرداس، ولا أذكر سوى أن اسمه سي علي، وكان معطوب حرب كما هو واضح.. فلم أشأ أن أدخل لا معه ولا مع غيره، في ترهات ومهاترات البطولة وما فعل كل واحد منا.. وإلا كنت أقول له صارخا بأعلى صوتي: إن أول نداء إلى إضراب الطلبة، بالعربية، صدر عن شخص اسمه الطاهر وطار، في 7 جوان 56 في جريدة الصباح، ولم يكن بلغ يومها، سن العشرين، وكان ذلك قبل الإضراب العام الذي شنه الشعب الجزائري بأقل من شهر، وتلاه في نفس العدد من الجريدة نداء للشعب التونسي من أجل المزيد من التضامن معنا، وفي شهر سبتمبر من نفس السنة وجهت نداء آخر للالتحاق بالكفاح المسلح. وأنني من

الذين هجروا مقاعد الدراسة، من أجل الثورة، وكان بإمكاني أن أذهب إلى القاهرة أو العراق، أو موسكو، وأعود بدوكتورا دولة، تجعلني سفيرا أو وزيرا، لكن همّ الوطن، وهمّ الفكر، وهم الصِّدق، كل ذلك جعلني مثلك، أتفرغ للثورة، ولو أنني لم أتفرغ فيما بعد للاستغلال وجني الفوائد، مثلما فعل ويفعل الناس. لا أحسن تصريف ما قمت به من واجبات يا سيد علي... وإنني أستصغرها، وكما يقول أبو الطيب المتنبي، على قدر الكرام تأتي المكارم... وقلت في نفسي:

تعظم في عين الصغير الصغائر،

وتصغر في عين العظيم العظائم.

انكببت على اللوائح والمقررات، مع محمد بورزام الرجل الطيب، والرجل المتسامح، والمتقبل لآراء وأفكار الآخرين، رغم ما هو معروف عنه من أنه عروبي يميني.

أحيانا كنت أساومه، على فكرة أشعر بأنها تتعارض وقناعاته، فيقبل المساومة، ضاحكا.

مرت المؤتمرات الأربعة، في أجواء موت بومدين، بسلام، وجاء المؤتمر الخامس، مؤتمر الشبيبة، الذي تجند له اليسار بكل ما يملك، من فتيان وفتيات، والذي قلت فيه قصيدا طويلا بالملحون، من بين أبياته:

هذا خامس مؤتمرات ..

نجمة ضواية في السماء تعلات..

حمراء بدم الشهداء توضات

في هذا المؤتمر، انتهت علاقتي الشكلية بحزب جبهة التحرير الوطني.

أحرقت سفني، ونحرت إبلي، وجعلت العدو أمامي والعدو خلفي، والعدو على جنبي، ولا بحر حولي أهتم بأمره. وأعتقد أنه كان لا بد من فعل ذلك. حيث أن هناك لحظات يتوجب فيها، على الواحد منا، قطع ما يسميه ويليام جيمس بالخطوة الحاسمة، والظهور على الحقيقة التي نحن عليها، إذا كان في ذلك الوسيلة الوحيدة لدعم ومناصرة صديق ليس له أحد غيرك.

قررت اللجنة التحضيرية، (في غيابنا) منع المداخلات، ومنع النقاش العام أثناء المؤتمر، والاكتفاء بتقارير الولايات، وهذا يحدث لأول مرة، فكل المؤتمرات الأربعة السابقة جرت عادية.

سادت البلبلة، وتجند أنصار الصمت الذين يقودهم مساعدية، وبعض زبانيته، أمثال بومهدي، الذي قد يأتي الحديث عنه فيما بعد. كما تجند اليساريون، بنشاطهم المعهود وبتهديدهم بمقاطعة المؤتمر.

لم يهمني ما إذا كانت المعركة تستهدف محمد الصالح يحياوي كمسؤول أول على الحزب، عيناه ملتصقتان بالمرادية، وبالكرسي الشاغر في قصر الرئاسة ، إنما همّني أن لا تكون الأداة لتصفية الحسابات داخل جبهة التحرير، هي القوة اليسارية التي تمثل الشبيبة جزءا كبيرا منها.

لا أذكر بالضبط، ما اعتراني لحظتها من خواطر وأفكار وآراء وانزعاج، ولكن لم أصبر...

لم أصفق لقايد أحمد، وهو ينعتني بسورج الجزائري الجبان. لم أسحب محفظتي نحو ركبتي، خوفا من أن يشك الناس في محتواها.

قصدت مكتب يحياوي، استقبلني كمن كان ينتظرني، أفهمته، أنها بدعة فاشية، أن لا يكون هناك نقاش عام في مؤتمر ما. ولا أدري ما إذا كان فهم تلميحي، إلى أنه هو المستهدف بهذا الموقف الغريب.

سألني عم يريد أن يقول هؤلاء الناس.

قلت ليقولوا ما يقولون. نحن هنا وخصومهم هنا، ولا خوف على المؤتمر.

وعلى مرآى ومشهد، من زبانية الصمت، جمعت الجماعة، وترأست الجلسة، وكان فيها رفاق مهمون من النقابة ومن الشبيبة، وأعلمتهم،

بقرار فتح النقاش العام، وبأن أعداء النقاش، كانوا يحضرون حملتهم الانتخابية، ولربما هم لعبة في يد قوة ما.

فُتح النقاش، وكان أروع ما فيه كلمة ممثل بشار الشاب الأزرق – حينها – خريج الاقتصاد، خمري عبد القادر.

قرأت قصيدي الطويل: زيدي يا الثورة للقدام زيدي.. فداك روحي فداك وليدي.

فاهتزت القاعة، وظلت حلقات اليسار تتغنى به، ربما حتى اليوم. وظلت إطارات جبهة التحرير، تحتج عن الدم الأحمر الذي توضأت به النجمة.

أحرقت سفني، نحرت إبلي، وسواء وشى بي الحاج عمارة أم لم يش، وسواء، تخليت عن العقل، الذي أوصاني الرفيق صيفي بالوفاء له، أم لا، فقد اصطدمت مباشرة مع محمد الشريف مساعدية في الميدان، وكان لا بد من أن يستعمل كل منا ما لديه من إمكانيات، ومن أدوات، وفتح ملف، الطاهر وطار، بكل صفحاته، بما في ذلك، استقبال وفود الأحزاب الشيوعية العربية، في بيتي عندما تزور الجزائر، وترغب في لقاء الرفاق، كما حدث مع وفد الحزب الاشتراكي اليمني، الذي شارك في إعداد مؤتمر الأحزاب الشيوعية العربية في

روما. والذي لم يستطع مساعدية أن يخفي استياءه من تواجدهم عندي، وخطب مرة قائلا، جبهة التحرير تدعوهم، ووطار يجتمع بهم

كنت أومن وما أزال، بضرورة إعطاء الوجه المناسب واللائق لجبهة التحرير الوطني، طبقا للميثاق الوطني، وميثاق طرابلس، وبيان أول نوفمبر، ومقررات مؤتمر السومام. أكثر من ذلك، طبقا لتطلعات الملايين الذين ساندوها، وآلاف الشهداء الذين ماتوا تحت رايتها، وبهذه الشرعية كنت أتصرف _ كشريك _ كامل الحقوق، وأعمل وإن بالتحايل والخفاء والسرية، والتنسيق مع كل القوى اليسارية، على تنويع وتعدد المنابر، وكانت علاقتي باليسار الجزائري في هذا الإطار، حتى أن قاصدي مرباح (10)، قال لي يوم استقبلني، وهو رئيس حكومة، ليعرض عليّ منصبا ما، إنه استقبل في الصباح عبد الحميد بن زين (11)، والهاشمي الشريف، وعلم منهما، أنني لست من حزبهم.

(وفي الحقيقة، انفصلت عنهم، بعد أن كنت معهم في منظمة المقاومة الشعبية التي تأسست عقب انقلاب 1965 العسكري، على الجمهورية، وبقيت على اتصال معهم، كطرف، حتى التسعينيات، حين فصلت بيننا المسألة الإسلامية، ومسألة اللغة العربية).

أحرجته، حتى احمر أنفه الكبير، عندما قلت له، مسؤول المخابرات الجزائرية العتيدة، لا يعرفني...

وبينما رحنا نحاول معا تلطيف الجو، وردت برقية تنعي موت الكاتب المناضل مولود معمري. فتركته يبكي وانصرفت، رغم حزني، أشعر بنشوة انتصار ابن خلدون على تيمورلنك.

تعلمت، أن أواجه خصمي في مثل هذه الوضعيات، بالتخلص من قضيتي، وإثارة موضوع يتعلق به هو... فذات مرة، سألني احسن محيوز (12) مسؤول دائرة الرقابة في الحزب (ج ت و)، وهو أشهر من نار على علم، خاصة في قضية الزرقاوية (لابلوتي) التي مات فيها على يده مئات المثقفين. سألني وهو يشعر بالحرج، بعد أن أجلسني قبالته، كما لو أنه يستنطقني: هل تنتمي حقا للباكس (حزب الطليعة الاشتراكية) يا وطار. صارحني.

أجبته بدون تردد، وعلى الفور: وهل تنتمي أنت حقا لجبهة القوى الاشتراكية، كما يشاع..؟

فوجئ. تخاذل. انهزم فأمرني بالانصراف.

لا شك أنه تذكر دسائس الأعداء بين المناضلين، والتي كان هو أهم ضحية لها، حيث نُصّب قاضي تحقيق، في التهمة الموجهة للمناضلين المثقفين الذين التحقوا بالثورة، بأنهم مبعوثون من طرف الاستخبارات الفرنسية ، وقد حاكت السلطات الاستعمارية، هذه المؤامرة، فوقعت الولاية الثالثة في الفخ ومات على يد هذا الرجل

المئات، ولا شك، أنه كان على حسن نية، ولا شك أنه اجتهد بدافع الحرص على الثورة، غير أن ما بلغنا من مبالغته في استحداث وسائل وأدوات تعذيب، فاقت ما كان يتبعه المستعمر... وتبعد كل شفقة عليه.

عمي حسن محيوز، يقال (ولست واثقا من ذلك) إنه كان في الشرطة الفرنسية قبل التحاقه بالثورة التحريرية، ولا شك أنه ورث الكثير، من تشكلات المهنة. ربما تحرك ضميره لحظتها، وهو يتذكر شبابا أبرياء في عمر الأزهار، سلخ جلدهم وتفنن في تعذيبهم ثم قتلهم. ربما أدرك، بحكم معرفته العميقة لي، أنني لن أتوقف عند هذا الحد، وأنني سأواجهه بما نشعر به من مرارة نحن المراقبون الذين لسنا من العنصر القبائلي، حيث أن محيوز ومن معه من إخواننا يعتبرون هذه الدائرة إقطاعية اقتطعت لهم.

إذا ما غاب منهم فارس، قام فارس آخر.. محيوز يخلفه عندما يغيب آيت وازو، وإذا لم يكن آيت وازو متوفرا، فرابح جرمان، وإذا لم يكن رابح جرمان، هنا، فمحفوظ إسماعيل. وإلا فموح أوعلي شيري بيبي وهو رائد، في جيش التحرير الوطني، آخر مسؤول علينا هو النقيب حميمي، وتنحصر مسؤوليته في عدم الابتعاد عن الهاتف لأنه لا يحسن فعل أي شيء آخر.

رغم أنني شاوي بربري، أتكلم معهم الأمازيغية، فإنني غير محسوب على الأسرة الحاكمة.

رابح جرمان، الرجل الطيب المسالم، الأمين العام السابق لاتحاد العام للعمال الجزائريين، وأقدم مراقب بعدي، وكذلك محفوظ إسماعيل وهو رائد جاهد في الولاية الأولى، لم أسمعهما مرة، يستعملان البربرية، لكن.. سي محيوز، هذا الذي يريد أن يعرف ما إذا كنت أحمل فكرا وأيديولوجية، وأناضل من أجلهما مع رفاق آخرين، لهم رأي آخر في تسيير البلاد. يمارسون عنصريتهم، ولسان حالهم يقول: اعذرونا. إننا مرضى. الله غالب.

تحملونا رجاء فنحن إخوة.

نظرت إليه بتقزز وكبرياء، وغادرته، ويشهد الله أنه كان يعطف عليّ، وكثيرا ما نصحني بالتقليل من الكلام.

ترددت في إثبات هذه الحقيقة، ثم قلت، لا نعالج المرض إلا بالكشف عنه وعن طبيعته. ثم إننا لا نعرف حقيقة كاتب مثلي، إلا بالغوص في المستنقعات التي كان يتخبط فيها.

وإن كنت أحزن لشيء، فإنما لذلك الاستسلام البليد الذي اعترى بقية المراقبين وأنا منهم: عمي علي يحياوي، محكوم عليه بالإعدام أثناء الثورة، علي بوكرمة، محكوم عليه بدوره بالإعدام، علي الشريف

نقيب في جيش التحرير الوطني، جديدي معراج، أحد ضباط الولاية السادسة، عبد الله بورب (صالحي) أحد ضباط جيش التحرير الوطني، عمي الحاج إبراهيم رمضان، أحد مجاهدي غرداية، المرحوم عمار شيبان أحد ضباط الولاية الخامسة، وآخرون لم يطل بقاؤهم معنا، لكنهم وقفوا كلهم، على الحالة.

كلنا... كلنا.. أصبنا بعدوى الصمت والتجاوز، وخجلنا حيث لم يخجل سي محيوز.

تمنيت لو أنني صادفت أثناء جولاتي الرقابية الكثيرة، حالة شبيهة لحالنا، فأقدم فيها تقريرا للهيئة العلياء في الحزب الحاكم، الذي يحمل اسم حزب جبهة التحرير الوطني، مؤسس الجزائر الحديثة.

حكمتي في حزبي وحيد الخلية، الذي تأسس وأنا في العشرين من عمري، هي حكمة الذئب: **اللـي تتلفتـه اجريـه**.. فلم أعر المسألة (التحقيق في انتمائي السياسي) كبير اهتمام، خاصة وأنني أعلم أن مسؤول الحزب، قايد أحمد المعارض للثورة الزراعية، لن يطول بقاؤه معنا كثيرا، ولعل الله، يفرج كرب هذه الأمة، فيلهمها قادة في مستوى تضحياتها وطموحاتها.. كنت كذلك، أنهمك في كتابة رواية اللاز، التي تعالج وضع الشيوعيين الجزائريين أثناء الثورة التحريرية، في حين تتواصل مطاردتهم حتى اليوم، وأنا على ثقة تامة، من أن هذه الرواية، ستكون قنبلة، ربما تنفجر عليّ أنا قبل أي واحد آخر. كان

الخوف يعتريني، وكان الفرح يساورني، كلما تقدمت صفحة أو أكثر، كثيرا ما ارتجفت، وكما لو أنني مجرم، بصدد ارتكاب جريمته. وتأكدت، منذ أيامها، من أن الكتابة الإبداعية، فعل، يتجاوز إرادة المرء. وأنها بشكل من الأشكال، حمل وولادة قسريان.

عندما صدرت، وقد حدث ذلك خطأ، حيث أن مدير النشر بالشركة، الصديق عبد الرحمام مضوي، ظن أن العمل الفائز في مسابقة نظمتها الدولة، هو **اللاز** وليس المجموعة القصصية **الطعنات**، ولكن " ما رميت إذ رميت... ".

لم أفعل أكثر من النوم بكامل ثيابي وحذائي، والانتشاء، كالمخدر، في انتظار أن يلقى علي القبض، دام ذلك ما يزيد عن شهرين.

جرأة أن تكتبها. جرأة أن تنشرها. فليكن ما يكون. قلت ونسيت الوراء، منشغلا بالآتي.

لقد حققت في تلك الرواية، ما رسمته من هدف، وهو أن لا أخيب فنيا، بحيث أقترب من الكتاب العرب يومها، وأن يكون المحتوى، يعبر عن روح شعب المليون ونصف المليون شهيد. وبالتالي صادقا.

يحكي الصحفي عبد الحميد شايب من جريدة الشعب، (والعهدة عليه) أن بومدين كلفه بالذهاب، إلى الأوراس والتحقق مع عجول

عجول، (أحد قادة الولاية الأولى اضطر لظروف ما للاستسلام للعدو) في مسألة قتل العيد العمراني (وهو زيدان في الرواية.. ويعود الفضل في اكتشاف مسألة العيد العمراني إلى سي الطاهر بن عيشة الذي حدثني عنه كثيرا) صبر على السر سنتين كاملتين ثم باح لي به.

أثناء مؤتمر المجاهين تفرد بي المجاهد وأحد المسؤولين في الجبهة، سي عبد الصمد، وأعتقد أنه الآن محام بباتنة، وقال لي بالحرف الواحد: قبل أن أقرأ رواية **اللاز**، كانت صورتك عندي تماثل صورة الشيطان، بل إنك أقبح منه، لأن ما بلغني عنك وعن الرواية فظيع في حق تاريخ المنطقة ورجالها، لكن عندما قرأت الرواية، أحببتك. دعني أسلم عليك.

إنك عرضت القضية، وكما لو أنك كنت حاضرا بيننا.

علمت فيما بعد (30 سنة) من الأستاذ عبد الرحمان السعيد (ماضوي) مدير النشر بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع، أن رد الحكومة اقتصر على لوم من الدكتور أحمد طالب، وكان وزيرا للثقافة، فسرني هذا التسامح، وسعة الصدر هذه، فلو كنت في أي بلد عربي آخر، لكان الثمن غير ذلك.

وقد أعيد طبع الرواية في الجزائرأكثر من مرة وما يزال يعاد. بالعربية وبالفرنسية.

كنت وما أزال، أحاول أن أفهم ما يجري حولي، ولسوء حظي، لا أحتفظ باستخلاصاتي لنفسي.

أقدمها للعالمين. إخلاصا مني للوطن، فلا يمكن أن يتقدم شعب ما، وهو يخفي الحقائق عن نفسه. ولا يمكن أن يُحترم شعب ما وليس فيه من يجاهر بالحقيقة ويستشهد من أجل ذلك.

... ولئن تراجع رفاق كثيرون، عن مبادئهم، ولئن انتمى بعض الرفاق إلى الأجهزة، وصاروا عيونا علينا، ولئن أضحت مهاجمة الطاهر وطار، موضة يسارية عند البعض، فإننى ما زلت، ولا زلت، أتشبث بالخلية الوحيدة، التي شكلناها، أنا وعمارة مساعدية في الخمسينات من القرن الماضي، وأومن بأن فيدال كاسترو وشي غيفارة نجحا لأنهما لم يستعملا اسم الشيوعية.

أومن بشيوعية، غير الشيوعية التي نعرفها. شيوعية، لا خصومة لها لا مع الله، ولا مع المؤمنين به، لا تتعارض، بل تتكامل، مع الأنبياء ومع الرسائل السماوية. شيوعية تؤمن بأن لكل جيل من الأجيال رأيا في مصيره، ومطالب تختلف عن مطالب الأجيال السابقة، شيوعية تؤمن، بالدورة التاريخية، للمجتمعات، حتى وإن

قدّمت لها جنة عدن. شيوعية تؤمن بأن الله، إن كان مجرد كذبة، فهو الكذبة الأكثر قربا إلى التصديق. والأكثر تصديقا في العالمين.

***

أخيرا، أعلن سي مساعدية عن قطع الخطوة الحاسمة:

يحال وطار ومن معه على المعاش.

***

ما أنوه به في عملية إحالتي على المعاش هذه، هو أنهم قدروا قيمتي ومكانتي، فلم يشاؤوا أن يجعلوني الضحية الوحيدة، وهم يعلمون أن ذلك لن يمر بصمت، محليا ودوليا، بل قرنوا معي كل المراقبين، (رغم أن طرد باقي المراقبين، يقدم أيضا خدمة للقيادة التي أفرزها المؤتمر الخامس، إذ أن معظمها، خاصة من المحافظين السابقين، نعرف ملفاتهم جيد المعرفة، وليس منهم من لم نقدم حوله تقريرا)...

وضعنا سي محمد الشريف في كيس واحد، ورمانا في المزبلة.

أرسل لنا مقررات طردنا، يدا بيد، وفي الشارع، وبالأصح، في حديقة مقر الحزب بساحة الأمير عبد القادر، فتسمع هذا الفراش أو ذاك يهتف بأعلى صوته: عمي علي يحياوي. مبروك عليك لقد سرحوك...

إلىالوراء در.

عمي علي يحياوي هذا من البليدة، وأحد المحكوم عليهم بالإعدام.

رفض سي محمد الشريف رفضا قاطعا، استقبالنا.. وظللنا نلف وندور، ثم رحنا ننصرف إلى بيوتنا واحدا إثر الآخر.

لكن فيما بعد، راح يرتب شؤون زملائي، ولا شك أنه كان يستقبلهم، بعيدا عن الأعين، بينما تعرضت أنا للجوع، وها أنني أنتحر، ها هنا في شاطئ بن حسين في منزلي الصيفي، هذه 22 سنة خلت.

لم أكن أعرف ما أفعل.

أجلس في البيت ساعات وساعات، أمتلئ بروائح المطبخ، وبالهدوء العميق الذي يسود البيت والحي كله. وبقرف خاص من الوضع الاجتماعي، الشخصي، حيث كان بيتي هو غربتي الحقيقية.

أنزل إلى الشارع، أحاول الجلوس في المقاهي، أفشل، فتلك عادة لم أكتسبها.

أبحث عن زملاء العمل، فأجدهم أقواما آخرين، لم تعد لي تلك الهيبة التي يجاملوننا من أجلها.

(ما أتقزز منه طوال حياتي، هو هذه الشخصية المتناقضة لدى مناضلي حركة التحرر الوطني الجزائرية.. هناك امتثالية واستسلامية مطلقة للمسؤول الأعلى في الرتبة، مهما كانت قيمته الشخصية، وهناك نفاق ومجاملة، وخداع، للمسؤول المماثل في الرتبة ، وهناك عجرفة وعنجهية وتسلط، تجاه من هو أقل مرتبة.

من جملة المناظر التي علقت بذهني، ولن تتمحي من بين عيني، ولا أجد لها أي مبرر، منظر التدافع، للتسليم على وزير الخارجية الأسبق، محمد الصالح دمبري، بمناسبة حفل أقامه، إحياء لاحتفال بذكرى أول نفمبر العظيمة. كنت من جملة المدعوين، ولم يكن من عادتي تلبية مثل هذه الدعوات، إلا أن الرجل كان مستشارا للسيد مولود حمروش رئيس الحكومة، وقدم لي خدمات، وأنا مدير للإذاعة، وهو الذي نصبني.. ثم إنه يسحر بسعة ثقافته، وببشاشته، حتى لتظننه أحد أقربائك.

انزويت، رفقة الشيخ أحمد حماني رحمه الله، وهذه عادتي دائما، كلما تواجدت في مثل هذا الوضعيات، ورحت، أتابع التدافع باستغراب...

لم يكن المتدافعون أشخاصا عاديين ينشدون التقرب والتزلف، ولربما وظيفا ما في السلك الديبلوماسي، لهم أو لأحد أقاربهم. كانوا

الشخصيات التاريخية البارزة في الثورة والمتبقية للتبرك: بن طوبال. محمد يزيد. وهلم جرا...

كنت أتابع المنظر، وفي نفس الوقت، أستمع للشيخ أحمد حماني يسألني، لماذا لا يتولى أحد منكم أنتم طلبة جمعية العلماء المسلمين، الجزائريين أية مسؤولية علياء. لقد كان الرئيس السابق من زاوية الكتانية، ورئيس الدولة الحالي الأستاذ علي كافي منها أيضا. خدِّموا أمخاخكم قليلا، وستجدون العلاقة بين فرنسا، وبين مؤسسات الحكم.

أظلم الشيخ أحمد حماني إن نسبت إليه قول إن وزير الخارجية، هذا، كان أمينا عاما، للرابطة الفرنسية " لا ليانس فرانسيز" ، أثناء الثوة التحريرية ولا نعرف شيئا آخر عن دوره النضالي ، ويقال إن قرار تعيين الحكومة، تأخر صدوره أكثر من شهر بسبب الاعتراض عليه، فهذه ليست مسألة خافية عن أحد، ويتحدث بها الناس بصفة عادية وطبيعية...

لكن "الفارس من ركب اليوم"، كما يقول المثل الشعبي، وهذا ما يطبقه حرفيا تدافع القادة التاريخيين، للسلام عليه، حتى يظهروا في التليفيزيون يحتضنونه.).

أحبابي.. كانوا يتجنبونني، خشية، أن يُتقول عنهم بأنهم سمعوا كلاما مني ضد هذا المسؤول أو ذاك. وقد كانت هذه عادة راسخة

في الجزائريين، فالثور الذي يقع، يشحذون سكاكينهم للإجهاز عليه، ولله في خلقه شؤون.

أما خصومي وأعدائي الذين أروح، أبحث عنهم بحمية وحماس، حتى أنشط دمي قليلا، فقلما أجد واحدا منهم، وإن وجدته، فإنه يترك الخصومة الفكرية التي كانت مستعرة بيننا جانبا، ويستغرق في أحاديث تافهة. ويبدو أنهم سامحوني لأني لم أعد أؤثر.

هكذا كانت تتبدى لي الأمور، ولعلني كنت واهما، لعلني لم أستطع من جانبي أن أوقد نار الخلاف حول نقطة من النقاط، فظل دمي راكدا. لعلني وهنت. ذبلت الشمعة فمالت إلى الخفوت.

توقفت الرياح فساد السكون، واحتارت السفينة.

جئت منزلي الصيفي هذا، وهو بناية صغيرة، تبعد عن الماء سبعة أمتار أو ثمانية، وتلتصق بالجبل المنحدر من قمم شاهقة، يعبره الطريق البحري الرابط بين تيبازة وشرشال، كما لو أنه حية، تتلوى.

أيامها، كنت وحدي فلا جار ولا دوار، ولا حبيب، مثل "التبيب" كما يقال.

في الليل، لا يسع المرء ها هنا، سوى أن يخاف، خاصة عندما يكون البحر، يزأر بطريقته الخاصة، قادمة أمواجه مستعجلة، من الشرق، عائدة إليه في عجلة أكبر.

بنى أخي أونيس الذي يصغرني، هذا المنزل، ثم تخلى عنه، عندما اكتشف، أنه لم يكن أحمق فقط، بل، كان أبلها ومغفلا.. لم يستشر زوجته وأولاده، فوجد نفسه قد فصّل قميصا على مقاسه وحده.

كان على مقاسي أنا، ورب صدفة خير من ميعاد. شكلا ومضمونا، وجد هوى في نفسي.. أنا الذي لم أبدع حرفا وحدا في السكن العائلي.

شيئا فشيئا، راح هذا الوكر، يتحول إلى شبه هيكل مقدس، وإلى مقام زكي... وإلى شبه فضاء في رأسي أخبئ بعض الأحلام المستحيلة، عندما أبصر جبل شنوة من بعيد، يخفق قلبي، ويهيأ لي أن سر الأسرار يكمن ها هنا، وأنه ينفتح لي، حالة، روحية عرضها السموات والأرض. وعندما أكون في الداخل، أرى البحر، أو أسمعه، تقترب مني جميع الحقائق الخالدة، وأتحول إلى واحدة منها. أكون الواقع وأكون الحلم.

سأوصي بأن أدفن فيه، إذا كان ذلك مسموحا، فهاهنا ليس بيني وبين نفسي أية مسافة.

قبل أن أمتلك مقطورة، كنت ألتجئ إلى المقاهي المنعزلة وبين يدي المخطوط.. رواية أو مجموعة قصصية، أو غيرهما.

فاللاز كتبتها في غالبيتها، بمقهى على الشاطئ الغربي لمدينة الجزائر، حيث كنت أقضي الساعات تلو الساعات.

رمانة كتبتها في مقهى قبالة نزل أليتي (السفير اليوم). الزلزال بقسنطينة في السطحة المنصورة، وفي مقطورة، تحت وهج الشمس، حيث كانت درجة الحرارة تبلغ الأربعين في الظل.. الحوات والقصر كتبتها في *سد أغريب* بولاية *عين الدفلى* الحالية، في نفس المقطورة.

كذا باقي الأعمال، إلى أن منّ الله عليّ، بهذا المنزل العجيب. الواقع على شاطئ بحر مهجور، ليس فيه سوى الصخور البركانية الداكنة، والمنتسب إلى شاطئ بن حسين الذي يبعد عنا بما يقرب المائتي متر.. لكنه منفصل عنا فعلا، بزاوية حادة، يتشكل بعدها مباشرة، جون صغير، يقع في حضن جبل الشنوة العتيد، الذي يمتد في البحر وكأنه دينصور ينحني في إصرار، ليفي بالوعد الذي قطعه منذ أن انشقت الأرض، وبدأ الماء ينز، حتى صار الشق بحرا:

إفراغ البحر من مائه...

وهو يضم مجموعة سكنات، ما فتئت تكبر عما خلفها عليه المعمرون وتتطاول بشكل فجّ وقح...

سمي بن حسين، نسبة إلى شهيد، لا أحد من سكان المنطقة، يعلم من أين أتى، ولا أحد من الأقارب يقف عند مقامه جنب الطريق،

فقط السلطات الرسمية، تحضر إلى مقبرة الشهداء الواقعة على بعد مائة متر منه، لتجدها، قد نظفت من الأعشاب والغائط وطليت بالأبيض وأعدت أحسن إعداد، حتى الطريق المؤدي إليها يعبد بالمناسبة.

قام بعملية فدائية، روعت المعمرين الذين كانوا ينعمون بأشعة شمس إفريقيا، معمدة، بمياه البحر الأبيض المتوسط الحنون.

فجر عدة قنابل، فعلا الصراخ، واصطبغ الماء باللون الأحمر.

قلت لبن حسين، وأنا أمر على مقامه: السلام عليك أيها الغريب. كل غريب للغريب نسيب، قالها شاعر قبلنا.

ليس أشق من الغربة أيها الشهيد. وليس أكثر غربة في بلدنا من المبدعين والشهداء.. لقد كرمتكم بقصة ***الشهداء يعودون هذا الأسبوع***، وأحاول تكريمكم يوميا ببذل بعض العطاء والتضحية من أجل هذا الوطن الذي لولى تضحيتكم لما كان.

لا تحزنوا فما استشهد شهيد، إلا وسقى دمه شهيدا آخر، في رحم التاريخ، آتيا طال الزمن أم قصر.

***

يذهب بي الاعتقاد إلى أنني أكثر من شخص...

هنـاك رب الأسـرة المراعـي لكـل الاعتبـارات الاجتماعيـة، وهنـاك السياسي المرتبط ظاهريا ومهما كان، بحزب حاكم، والملتزم، بالسلوك المستقيم المنضبط، النموذج الذي ينبغي أن لا يتهشم، وهنـاك هذا الشيطان الذي يتخفى عن الناس، ليعري الصور والأخيلة ويُنزل النجوم في وضح النهار، فيراقصها في غفلة من الجميع.

عادة ما أختلي للكتابة في فصل الصيف، (لم يحدث غير ذلك) وبالضبط في شهر أوت الذي هو شهر ميلادي، وشهر ميلاد كثير مـن الشخصيات السياسية والحربية، فنية مبدعة كانت أم فاشية طاغية، ولكن ها أنني أجيء في غير الفصل.

أجيء غير مرفوق بزوجتي، محملا بالوحدة والعزلة، والشيخوخة المبكرة، مفصولا عن كل نشاط اجتماعي. تمنعني عزة نفسي وكبريائي، من الاشتغال في الصحافة تحت إمرة أحدهم.

أنـا، مؤسس جريدة الأحرار، ومؤسس جريدة الجماهير، وعضو اللجنة الوطنية للتوجيه والإعلام في حزب جبهة التحرير الوطني، ومؤسس الشعب الثقافي، التابع لجريدة الشعب، أنا المراقب الوطني، الذي لف الوطن كله طولا وعرضا عدة مرات، وكانت له صولات وجولات، توجيهية ونظامية في مئات المهرجانات والاجتماعات، عاقب رجالا، وجازى آخرين.. أنا مؤلف رواية ***اللاز*** التي تدرس في مختلف المدارس الحزبية اليسارية، إلى جانب رواية **الأم** لغوركي،

ورواية **العقب الحديدية** لجاك لندن... أنا الذي يقبل المناضل الفلسطيني، عندما ينزل أرض الجزائر التراب الذي نشأ فيه الطاهر وطار.

أنا هذا.

عز علي وأيم الله، أن أتذلل لأحدهم، كي يشغلني صحافيا، وهم كلهم يعرفون حدة كتاباتي وجرأتها، والتزامي الفكري الذي لا يتزحزح، وهم كلهم، قِطَع فاعلة في هذه الآلة العجيبة، النظام البوليسي.

إن من طردوني من الحزب، ومن كتب ويكتب إلى الحزب احتجاجا على وجودي ولفتا للانتباه إليه، سيظلون ورائي ، يؤولون كل حرف يخطه قلمي، حتى وإن كان من دليل الخيرات، أو فقه سيدي خليل، وقد حدث فعلا أن اتهمت من طرف مساعدية، بأنني أنقل آراء المعارضة في تقاريري، وطلب مني ذات مرة أن أشطب فقرة، غريبة ومثيرة في رأيه، منقولة من أدبيات الباكس ، كما قال، لكن فاجأته، بأن تلك الفقرة إنما هي من الميثاق الوطني، الذي نتباهى به جميعا، يمينا ويسارا.

أحنى رأسه، ولم يشعر بالخجل، وأعتقد أن مثله لا يخجل إطلاقا. ولربما قال في سره، تستحقون الحرق أنتم والميثاق.

أظل في النهار منفردا، أما في المساء، فيلتحق بي الشاب أحمد، الذي يقيم بالمنزل عندما لا أكون فيه، وهو شخص عجيب، قد أفرد له مقاطع فيما بعد.

يحلو لي أن أحدثه بالأمازيغية التي تكاد تكون شاوية الأوراس، ويقال إن هناك دراسة في ولاية خنشلة، وضعها الفرنسيون، تقول إن أصول سكان هذه المناطق من الشرق الجزائري، نفوا أيام الثورة الدوناتية إلى هذه المستعمرات، وهم يشتركون معنا في كثير من العادات والتقاليد.. ويحلو له أن يقتسم معي قنينة النبيذ، التي أكون حريصا، على أن لا أفتح غيرها، تخوفا من الانهماك في الشرب، فأكون مثل كاتب ياسين.

أحضرت معي قنينية حامض، خلطت كمية منها بالنبيذ، في انتظار عملية الرحيل إلى العالم المريح، فتنفرج كربتي نهائيا، بهذه الوسيلة التي هُيء لي أنها المثلى، إذ يكفي أن أغمض عيني، وأن أعبّ كأسا في بطني، ثم أتوجع منتظرا الحدث السعيد... العبور، إلى ما وراء الجدار.

سأتوسل للشهداء، أن يقبلوني ضمنهم، فما فعلت، إلا ما أملاه علي ضميري، حبا للجزائر.

مسرحية ***الهارب*** التي كتبتها في الخمسينات، وفي عز مساءلاتي الأيديولوجية، كي أرد بها على العملاقين جون بول سارتر، وألبير كامي، قائلا، **لا القفز والوثبات، ولا التمرد**، إنما التزحلق بدفع من الخلف.. في هذه المسرحية محاولة انتحار فاشلة، كانت العمود الفقري لها على مر الفصول والمناظر والأحداث.

ربما حاولت أيامها الانتحار، أيضا، فقد كنت أعيش حالات وجودية، وكعادتي، أعيش العزلة والقرف مما بلغته أوضاع الجزائريين في تونس...

الموت لا يرهبني، وهو بالنسبة لي تجربة لا بد من التعرف عليها.. لا بد من الإطلال عما هنالك، وراء العالم الحالي، وراء هذا الجدار البلوري الرهيف.

من جاء من الغيب، لا يستغرب أن يكون الغيب، في انتظاره، إلا إذا كان مغفلا، وأثق في أنني، إن فقدت جلدي ولحمي، وتفتتت عظامي وتشتتت، سيظل وعيي هو كينونتي التي لا تخمد. ولربما من هنا جاءت جرأتي حتى لا أقول شجاعتي، ولربما لهذا السبب، لم أتخف في التسعينات، وظللت على طبيعتي وسيرتي، وسط الموت الكثيف.

لا أومن بالله، كما بسطته الديانات، وكان ذلك منذ زمن بعيد، حيث كنت.. (وأنا بقسنطينة، طالبا متدينا من طلبة معهد الإمام عبد الحميد بن باديس، ينتظرني أبي وأهلي وناس قرية مداوروش، لأكون إمامهم، ومفتي شؤونهم، التقي الورع.)

.. أصلي بالجامع الأخضر الظهر، وكان الجامع شبه مظلم، خاليا إلا مني، فبدرت مني التفاتة إلى سبابة يدي اليمنى، ترتفع وتنخفض، طبقا لسرعة أدائي للتحية.

أية أنانية هذه عند الإنسان، ففي حين يصبغ كل صفات العظمة على الله، يجلس أمامه، ولسان حاله يقول، إن لم أكن أراك فإنك تراني.

تذلل لا نهائي، وتطاول ووقاحة لا متناهيان...

هذا العظيم، المسؤول عن كل كبيرة وصغيرة في الأكوان، ينشغل بي أنا المصلي، الآن، في جامع سيدي الأخضر، وتهمه حركة إصبعي، وركوعي وسجودي وما إلى ذلك.

ضحكت، وقطعت صلاتي، ورحت أبحث عن علاقة جديدة مع الله، الذي لم أنف وجوده في أية لحظة من اللحظات، ما دمت مخلوقا، وأعتز بأنني خليفة له، علمني الأسماء كلها، وكلما تقدمت مداركي كشف لي سرا من أسراره ، وسمح لي بأن أتدخل في خلقه،

فأشفي العليل، وأروض الكائنات.. أكثر من كل ذلك، أنشئ ما أنشأ وأعدل بعضه، في أحسن تقويم.

أثق في أنني خلية، وجدت منذ الأزل، وستظل باقية إلى الأزل أيضا.. وما هذه الأكوان إلا الخلية.

إلا أنا.

لا شك أن تهويمات جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة، وأمين الريحاني، وحذلقة زكي مبارك، وتجريدية الرافعي وصرعاته، وثرثرة طه حسين ، وعجرفة العقاد، أثرت فيّ، وغيّرت مجرى حياتي، إلى جانب توجهاتي الفترية.

لقد كنت أحرج والدتي وهي منهمكة في نسج الزربية، ولما أتجاوز السادسة بعد، بالسؤال عن موقع بيت الله.

كانت تنهرني، دون أن تقدم لي أية إجابة.. ولو يسألني أحدهم الآن أجيبه بأنه **يسكن في قلوبنا**، وهي وحدها التي تسعه.

جلست مستندا على الحائط، وقارورة الخليط السعيد قدامي، وكان النور خافتا، تقابلني في الحائط الآخر مرآة كبيرة، مضببة، أكلت الرطوبة كثيرا من أجزائها، وكان البحر قد تنازل عن بعض صخبه بعد ثلاثة أيام، من ثورة يبدو أنه اكتشف أن لا طائل من ورائها، ولا جدوى منها.

ثلاثة حلول أمامي.

أستسلم للنوم والكسل وشم رائحة المطبخ، والامتلاء بفراغ المنزل، أشهرا ثم أنشغل بالتجارة أتدبرها، وأتزوج ثانية وأملأ الدار بالأولاد والبنات .

أتحول إلى سكير مدمن. أعجل، بما تبقى لي من أيام.

أنتحر، (وهذا ما أنا مقدم عليه الآن).

لا بد أن أجد مخرجا ما. لا بد من هيكلة جديدة لهذا الحزب الشيوعي_ الطاهر وطار، مع الاحتفاظ بخليته الوحيدة.

قبل أن أقرر، قابلني في المرآة.

صاحبي الذي هو أنا.

ضحكت، قائلا إن الإنسان، قلما يستطيع أن يحتفظ بصورته، في ذاكرته.. ووحدها المرآة، وفية لنا، فهي تعرضنا كما نحن... ألا بورك من اخترع المرآة. ولو أنها، تنسى ما كنا عليه قبل أسابيع أو سنوات، أو حتى لحظات، فنحن دائما في نظرها، الهيئة في اللحظة الحالية... لكي يكون للمرآة ذاكرة، علي أن أغمض عيني وأنا أنظر إليها.

تتبعته في المرآة، وقد كانت قارورة النبيذ، تحاول الصمود في وجه عطشي.

رأيته. رأيته. رأيته.

دار الفيلم إلى الوراء حتى عاد إلى هنالك.. إلى البداية. إلى دار الحاج مٌحند أونيس، زيزي كما كنا نناديه. كانت الاستدارة سريعة، أقرب ما تكون إلى شهاب من الشهب السماوية. أسرع من ذلك، إنها ومضة من ومضات الحلم.

ها هي دار جدي التي ولدت فيها.

مدرستي وثانويتي وجامعتي التي أنشأتني:

القاهرة، دمشق، بغداد، فاس، تونس، باريس، موسكو لندن، برلين. مشاتل العباقرة.

أحس بأنني أتسلل من الزمن، فأعود إلى بطن أمي، من حيث نزلت، وقد كان الجميع في انتظار مجيئي، وفي انتظار مصيري... فقد مات طفل قبلي يحمل اسما جميلا، كانت تحمله شخصية وطنية، سعدان، كما فقدت العائلة بنتاً أعتقد أنها تكبر عبد الحميد، قبل سعدان تحمل اسم مدينة، ومدينة تعني بالنسبة لنا في تلكم المنطقة قسنطينة، وبقي الفضاء واسعا نسبيا، بيني وبين حميد. وكبر خوف

أمي، إذ لم يبق لها سوى اثنين، ومن يدري ما تخبئه الأيام، والحساد بالمرصاد.

لا شك أن الحاج مٌحند أونيس، كان على إحساس ما، بما يجري، في الجزائر أيامها، من ظهور الدكتور سعدان، والشيخ عبد الحميد بن باديس.. وفي أكثر من مرة، ورد أمامي أن أبي حضر دروس بن باديس بقسنطينة، حتى أنه يوم أوصلني إلى المعهد قصد مباشرة نهج الشيخ بن الفقون، ثم مطعم بالباي، وساحة لابريش، وكأنه يعرف قسنطينة من قبل. أكيد، أن أبي هو الموحي بالتسميات.

تقول أمي فيما بعد، إن جدك هو الذي قتل أخاك سعدان، فقد أخفيته عنه، ما يزيد عن سنة ونصف. خوفا من عينه التي كانت تفتت الحجر، وتذيب الحديد، وتطفئ النار، في غفلة مني خرج سعدان إلى الحوش الكبير، وكان أبيض ممتلئا، جميلا رائعا، فتساءل جدك متعجبا:

لمن هذا العجل؟

ركبته لتوه الحمى، وظل على حاله ليسلم روحه في المساء. ولم يستغرب أحد ما حدث. فالذي يعطي هو الذي يأخذ.

كان جدك والعياذ بالله "معيان"، ما ضرب بقرة أو نعجة أو دجاجة، أو بني آدم، إلا وأتى عليه.. وعينه لا تفرق بين ما يحب وما يكره،

بين ما هو له وما هو لغيره. وكلكم، فيكم شيئ منه، بهذا القدر أو ذاك.

أما أنت فقد نجوت منه، لأنك كنت هزيلا، بقيت شبه كسيح، قعيدا، لأكثر من سنتين... ولربما، يعود الفضل في نجاتك، إلى ذلك القرط الذهبي الذي وضعته في أذنك، والذي قطعه جدك ما أن بدأت تقترب منه...

... أذكر عملية الكسر تلك، وما تزال موساه البيضاء الصغيرة التي يستعملها في تعرية العظام من لحمها، ببراعة، أحاول حتى الآن تكرارها، كلما وجدت نفسي بصدد أكل ضلعة. ما تزال بين عيني وهي تمتد إلى الخرص، لتقطعه، ويستله من أذني قائلا أنت رجل ولا يحق لك أن تحمل هذا.

ربما كنت يومها في الثالثة من عمري. أتنقل بصعوبة بين غرف المنزل وسط الأولاد والبنات. أحدق في الناس والأشياء، أشبه ما أكون بضفدعة صغيرة.

دار جدي تكاد تكون حارة، تكبر كلما تزوج واحد من أهلها ودب خلاف بينه وبين زوجة جدي الكبرى: نانّة خْشيمة.

تبدأ في الخارج، بالجامع أو ببيت تعليم القرآن الكريم المتواصل طوال السنة، جنب حظيرة للأبقار، وقرب صور الهندي (الصبار)

الذي يحرسه مستراح صغير، يشرف على كل المنطقة الغربية، وعلى بعد خمسين أو ستين مترا، يقع مدخل الحوش، على يمين الداخل، مرآب يستعمل للألات الميكانيكية، وعلى اليسار بعد بضعة أمتار، "دار الضياف" وهي عبارة عن غرفة جميلة مطلية بالأبيض والأخضر، مغطاة بالخشب تحت القرميد، عند باب مدخلها فرشت حجارة مسطحة، عادة ما يقضي عمي الدراجي مع زوجته الصغرى الليل هنا، وعادة ما يقضي جدي صباحاته بها، حيث يجمع أحفاده وأولاده ويروح يغني لنا ونحن نرقص رقصا جماعيا...

الأغنية الوحيدة التي يرددها جدي تنحصر في بعض مفردات ما زلت أحفظها:

يا القبة الخضراء ومن البحور تبان.. حتى يقول جاوك لخْوان.

هذه كل الأغنية، لا زيادة ولا نقصان، ولكننا كنا نرقص عليها بشره وحبور، نمسك بأيدي بعضنا، وننقل أقدامنا في إيقاع منتظم.. حتى يأتي فطور الصباح للحاج.

ينفضُّ الجميع، فأبقى.

لماذا أبقى أنا بالذات وحدي مع جدي. لا أدري، ولكنني الوحيد الذي يقتسم معه الأكل. بدون سابق أو آخر نقاش.

لا أدري ما كان يرى فيّ الحاج مُحند أونيس؟

إذا ما خرجنا من دار الضياف، واستدرنا يسارا، بعد تجاوز تينة، لا أذكر أنها أثمرت، ندخل الحوش الثاني لنستدير يسارا قليلا فنجد "دار العيال" وفيها غرفتان كبيرتان ومطبخ، الغرفة الأولى ينام فيها معظم أولاد عمي الدراجي مع أمهاتهم، وهي تتمة لدار الضياف، وإن كانت مفصولة عنها فصلا تاما، تليها بيت المؤونة، وهي أيضا تستعمل للنوم.. يلي ذلك المطبخ، الذي لا يتوقف العمل فيه ليل نهار، شتاء وصيفا.. وهو عبارة عن دهليز كبير، جدرانه، غير ملبسة، تمتلئ بالروث والتبن، والدخان، حيث أن مدخنتها لا تستطيع بحكم هندستها الخائبة، أن تمتص ولو جزءا يسيرا منه، ولكنها تستعمل مدخنة، والجميع يجلس قبالتها، آملا في أن يهديها رب العالمين، فتقوم بواجبها وتخفف بعض الدموع عن الأعين.

كنا أزيد من خمسة وعشرين فمًا تقتات من هذا المطبخ العجيب، يضاف إلينا، ويوميا، وعلى مدار السنة، ضيوف جدي، وهم على ثلاثة أنواع:

- المتسولون وأبناء السبيل، يقضون يومهم في اللف في الدواوير، والقرى المجاورة، ويقصدوننا للمبيت والأكل مساء.
- الباعة المتجولون على البغال والحمير، ونسميهم الشيادة، وهؤلاء لهم حظوة عند جدي، فغالبا ما يوفرون قسمته من الفاكهة، حتى أن أكلهم أرفع قليلا من أكل أبناء السبيل.

- الضيوف القاصدون، وهم ممن يقصدوننا في مهمة اجتماعية ما. وهؤلاء مأواهم دار الضياف، وأكلهم أرقى من أكلنا نحن.. الكسرة البيضاء، والكسكسي، المسمغ بالسمن العتيق، واللحم أو على الأقل القديد (الخليع) في الحالات الاستعجالية.

كثيرا ما يتم الاعتماد على الكسرة السمراء بالنسبة للأطفال، وعلى بوشقوف، وهي أشد سمرة، وأكثر يبوسة، للرعاة والمتسولين، وعلى الكسرة البيضاء (الخميرة أو الرخسيس). لأولي الأمر، الحاج، وابنيه الكبيرين.. عماد ذلك كله اللبن وهو الحليب الذي انتزعت منه زبدته، أو الحليب الرايب، أو الزبدة أو الدهان وهو السمن العتيق مع العسل في بعض الأحيان.

وهناك نوع من الجبن، لم أجده إلا عندنا وعند عرش الحراكتة فقط، سألت عنه في كل نواحي الجزائر، العرب والعجم، كما سألت عنه في شبه الجزيرة والخليج، ولم أجد ذكرا *لبوهزة* إلا في منطقتنا.

يعدون شكوة غير مدبوغة، حتى تسمح للماء أن يتسرب منها، ويملأونها باللبن الممخوض، ويضعون فيها قدرا وافرا من الملح، وكلما جف الماء من الشكوة البيضاء زادوا، إما اللبن وإما الحليب، حسب درجة الحموضة المطلوبة، وكلما فعلوا ذلك هزوا الشكوة هزا

منتظما، ومتواصلا، حتى تختلط المادة ببعضها، وقد يضيفون إلى ذلك فلفلا حارا، أو ثوما مطحونا، أو بعض التوابل، حسب الذوق.

يصل بنا بوهزة الشهم، فصل الشتاء، حين تجف أضرع الأغنام، أو تخصص للخرفان...

في فصل الشتاء يقوم بوهزة مقام اللبن والحليب، والبياض بصفة عامة، والسعيد، هو الذي تضع المكلفة بالمطبخ يومها ملعقة منه فوق ربع الكسرة أو فوق مثرد الكسكس، رغم أن ذلك لا يتم إلا طبقا لمخطط صارم.

أعتقد أن هذه العادة انقطعت، وقد قصدت تسجيلها بالتفصيل، فلعل أجيالا آتية تهتم بهذا التراث الثقافي المتميز.

هذا في الأيام العادية، سائر السنة، كما يقال، أما في فصل الصيف، فيتغير الأمر تماما.

فصل الحصاد والدراس والأعراس واللبن الوافر، وزبدة الغنم البيضاء أو زبدة الأبقار الصفراء.

فصل تراكم الواجبات... قطعان الغنم، ينبغي أن "تدرس" في الحوش، وأن تتجند أكثر من امرأة لحلبها.

الحصادون بالمناجل، في التويزة، أو بـ"الباطوز ماسونوز"، بعد أن تطورت الأمور، أوالمرافقون للسبيكادورة، والدرّاسون إما بالخيول وإما بالماكينة، يجب أن يأكلوا ويشربوا كلهم.

وعلى نانّة خْشيمة وعوقة والشانقلوط، ويمّة، والعقونة، وعمتي فطيمة وعمتي شوشة، وعمتي لازي وجميع إناث الحوش أن يؤدين ذلك.

وإنهن ليؤدينه بطيبة خاطر، وبفرح غامر.

كلما ورد على لساني ذكر الحراكتة، أو أولاد حركات، عاد بي الذهن، إلى ما قاله ابن خلدون عنهم، من أنهم جنس نشأ من تزاوج العرب والبربر، وهو ينسب إليهم مستندا إلى ابن حزم، حتى أولاد جلال، إذ يقول: ومنهم الجلالة.

وتقول المجلة الإفريقية في عددها رقم 5، إن الحراكتة عرش كبير يبدأ من الخروب عند تخوم قسنطينة، وقد اصطدم بالاحتلال الفرنسي، كغيره من الأعراش، ولا شك أنه تعرض للإبادة كغيره، فلم يبقوا حسب علمي إلا على سفح الأورس، في الهضبة الممتدة من لعوينات، إلى المسكيانة إلى عين البيضاء، فأم البواقي فجرمة (نسبة إلى الجنس الجرماتي الذي عاش في كامل الشرق الجزائري حتى ليبيا حيث توجد هناك آثار جرماتية) والمعذر، قرب مدينة باتنة..

وهؤلاء هم الحراكتة الشاوية الذين يتكلمون الأمازيغية، ولكن حديثهم بالعربية فصيح ليس فيه أية لكنة. أما أولاد حركات وأولاد جلال، المتواجدون شرق ولاية بسكرة وجنوب الأوراس، فرغم أنهم لا يتكلمون الشاوية، إلا أن في لهجتهم، تثاقلا ما، لا نجده عادة إلا عند الشاوية أو القبائل، ممن تعربوا، ملامحهم تختلف عن ملامح غيرهم من العرب، إذ أن وجوههم مستديرة، مثل ذقونهم أيضا مع شفاه غليظة، نسبيا، وعلى العموم، فنحن بيض، وكثيرا ما يظهر بيننا شقر، زعر. ذوو عيون زرق. تغلب علينا ملامح البحر الأبيض المتوسط، أكثر من ملامح الصحراء، وقد يتجلى تشابهنا مع العرب، في بعض أشكال الأنف، وفي الفطس، وبروز الأرنبة بصفة خاصة.

في تقديري أن الحراكتة مثل التوارق من هوارة، أو هجارة كما يقول ابن خلدون حيث استبدلت الواو بالجيم المصري. وكلمة حركاتي تقابلها كلمة حرتاني، والحرتاني، هو التارقي من أم غير تارقية، حسب نظام الأمومة، وكما أن عندهم تين هينان ملكة، عندنا الكاهنة، وهي زعيمة، تحملت مسؤولية محاربة العرب الفاتحين، وقد تبعها قومها إلى أن انهزموا معها.

وإذا قيل عن الكاهنة إنها يهودية، فظني الكبير، أنها صابئة، وأن ديانة إبراهيم الخليل، تواجدت في الجزائر في نفس الوقت الذي توجدت فيه في بقية أنحاء المشرق.

ولربما تكون هوارة من تلكم المنطقة.

توجد في سفح الأوراس غير بعيد من منطقة الحراكتة، ربوة، صارت الآن مدينة، تسمى الشمرة، ولا أحد من سكان المنطقة يعرف معنى الكلمة، وقد كانت مملكة أوغاريت في سوريا تسمى أوغاريت الشمرة. تعرضت لزلزال وطوفان فانقرضت وتفكك أهلها.

وكثير من مدن الجزائر ومعالمها، تحمل أسماء تتضمن أوغاريت وأور.. بدءا من تاغورت وتاغورايت، وغورايا، وتاغروت، وتوغورت وحتى عبارة أوراس، فهي بالنسبة لي تتكون من كلمتين هي القمر والنهار، أور وآس، وفي الزناتية يسبق المنعوت النعت. وقد نفصّل في كلمة سوريا، وصور، وأشور، وكل هذه الكلمات التي تذكرنا بممالك أشور وبابل، وأور، حيث كان يعبد القمر. وهي تعني لي إذا ما انتبهت إليها بالأمازيغية: آس أور. يعني قمر النهار أو نهار القمر. فالقمر في الشاوية هو يور، وبالقبائلية هو قور.

عندما تتذكر جدك، فعليك، أن تسأل من أين جاء. أقول دائما لنفسي، وقد وجدت في دار جدي الجِمال والخيام الوبرية، والتحقت بأمي تنسج الفليج وكل قطع الخيمة، وقال لي عمي الدراجي، إن أول دار حجرية بنيت في منطقتنا كانت عندما عاد من الخدمة العسكرية، حيث حارب في "حلب الشام" ، وكان ذلك بالتقريب في مطلع العشرينات .

كنا قوما رحلا، ولكن إلى أين ومن أين .. لم يسعفني الحظ لأسأل جدي، فقد حالت ظروف الثورة التحريرية بيننا. وكم أنا حزين لذلك، فأنا حسب سلوكي أقرب ما أكون إلى جدي من أبي.

... يجذبني المطبخ المظلم للحديث عن المقيمات به، لكن أفضل أن أبدأ بالرجال، وسأقتصر على أصحاب القرار كما يقال، ولو أن صاحب القرار الأول والأخير هو جدي.

جدي الحاج محمد بن أونيس. زيزي.

أميٌّ ورث عن أبيه أونيس الذي مات في الحج، غير مأسوف عليه، على ما فهمت، فقد كانوا قليلي الحديث عنه، ويظهر أن جدي حج في وقت مبكر، فلم نشهد أبدا احتفالا بعودته من مكة.

يكره السلطة، ولربما أكون دقيقا إن قلت، يكره أعوانها من العرب، فقد سعى لأن يكون أبي خوجة أو شامبيتا. ولكن كل قياد المرحلة كانوا خصوما له، ربما لأنه كان يحتقرهم، ولا يدفع الرشى، ولا يعير اهتماما إلا للتراتبية ضمن العرش.

يحب المعرفة والعلم، فقد أرسل والدي إلى قسنطينة، لمعهد عبد الحميد بن باديس بالذات، وسمى أخي الأكبر عبد الحميد، وسمى أخي الذي مات بفعل عينه، سعدان.

وبين عيني، شبح سيارة غطاؤها أبيض، هي سيارة أبي. يقال إن جدي باع من أجل اكتسابها معظم ما يملك من الأنعام والأبقار والجمال.. ويجري الحديث باستمرار عن مفخرة دوارنا، تتمثل في هبوط طائرة، الله أعلم لمن تكون، وطلب أصحابها من أبي أن يصطحبهم بسيارته إلى جهة ما قد تكون صدراتة وقد تكون قسنطينة، وقد فعل ذلك، وجازته السلطات الفرنسية بأن عينته خوجة. وإنني لأتصوره الآن، أبي بعمامته التي تغطي رأسه وعنقه، وجبته البيضاء العريضة، وبرنسه الصوفي الذي يشكل كلا لا يتجزأ من لباسه، وهو يتباهى أمام هؤلاء الأروبيين ببعض الكلمات الفرنسية التي يستعملها، والتي ترسبت في ذهنه من أيام الخدمة العسكرية، وباستظهار أنه سائق بارع. ولسان حاله يقول، أقودها آلتكم كما أقود جملنا أو فرسنا.

المؤسف أن أبي كتوم، لا يتحدث إلا ردا عن سؤال. وقد فاتني أن أستنطقه في أمور عدة، ما تزال مضببة حتى الآن.

لا شك أن الأجواء العامة السائدة في أواخر العشرينات ومطلع الثلاثينات كانت تشملنا بدورنا، أو على الأقل تبلغنا، فقد كان جدي يتسوق كل يوم جمعة إلى صدراتة التي كانت تسمى في التاريخ بتاغروت وهي تسمية فينيقة، ما في ذلك شك، رغم أن مفردة **تاغروت** تعني عندنا الكتف، ورغم ما قد يكون شمل المفردة من

تحريف، عن توغرت، وهي تعني فيما قد تعني القميرة، فحيثما كانت حروف **أور وغور** فالمعني ينصرف إلى القمر.

كما أن عمي الدراجي من حين لآخر يتسوق إلى عين البيضاء، وله فيها معارف كثيرة، بل إن معظم أفراد عرش أولاد سعيد الذي ننتمي إليه، يتواجد هناك وبدءا من أم البواقي وقصر الصبيحي.

إلى جانب سيارة أبي التي لا أذكر أنني رأيتها تسير، ولو أن في أعماق مخيلتي أن والدي حباني بركوبها.

عندنا ما يسمى بـ"الكروسة" وهي عربة خشبية، ذات أربع عجلات، اثنتان كبيرتان، واثنتان صغيرتان، وغطاء شبه جلدي جميل.

هي لعبة وهواية عمي الدراجي، وهو رجلها وخبيرها، ولا أحد يمكن أن ينازعه فيها، رغم أنه لا يركبها إلا بعد أن يعدها له أحدهم.

ليلة الجمعة، يستحم عمي الدراجي في المساء، ويحلق لحيته، (لا يفعل ذلك بنفسه إنما يستعين بابن عمه بحوت) ويستيقظ قبل اختفاء النجوم.

يوقظ من يعد الكروسة، وهو غالبا بحوت. يحمل عمي الدراجي خيزرانته التي لا يتخلى عنها مهما كان، ويجلس على حجرة كبيرة، ربما هي من بقايا حجارة الرومان، في انتظار جدي.

عمي الدراجي تحبه جميع نسائنا، فهو الذي يوصينه بشراء هذه المسألة أو تلك، وهو الذي يحمل بيض هاته أو تلك ليبيعه لها، وهو محط ثقة كل واحدة.

وعمي الدراجي لا يشبه لا جدي في سلوكه ولا أبي. فهو مسالم، أنيق، لا يكلف نفسه عناء أي عمل، معتد بجماله وبهاء طلعته، كثير التنكيت، حتى أنه لا يتحدث إلا نكتة.

لا يغضب عمي الدراجي إلا على أحد الكلاب، حين يحمل حجرة، وينهره مبعدا أياه عن الساحة.

(أضاع المسكين عندما حج أوراقه، وتاه شهرين فاقدا للذاكرة، ثم وجد نفسه، في فرنسا عند ابنه اغريو، ومات في حالة فقر وإهمال تامين.)

أولاده عمار ومجيد، والسعيد، وميلود وبناته وكذالك إخوته ، ينادونه جميعا عمّي.

أما أبي فقد كانوا ينادونه بويا لَعْلَى. تكبير لعليّ. أما نحن فنقول بالشاوية "ذادَّه".

أبي وهو حداثي الدار، غامض لا يظهر كثيرا، ولا نعرف عنه الكثير، يحصد أيام الحصاد بـ"السبيكادورة" فهو المختص فيها، رغم

أنه يشتكي من ملص في ذراعه الأيسر، وكثيرا ما تأزم وضعه وراجع الطبيب.

كان أبي يصطحبني معه، حتى على آلة الحصاد، ولربما كنت محط حب الجميع، خاصة جدي وأبي وزوجات أعمامي. وكثيرا ما تساءلتُ، ماذا كان يرى فيّ شيخ أولاد الوطار؟

اصطاد لي أبي مرة وكنا معا في السبيكادورة، قطاة، ولم نكن نعرف اسمها إلا بالشاوية حيث نقول "ثاريراوث".

فرِحت بها كثيرا، وعلقت عليها آمالا عريضة، لكن عندما عدنا إلى الدار، أخذها مني عمي العيد، تأملها، وتأملني، ثم حز رقبتها على منشار السبيكادورة، ورغم أنه كان يضحك، إلا أنه هيء لي أنه مغتاظ، ربما حسدني وحسد أبي.

فزعت، واستفزعت، وجن جنوني.

اقترح علي عمي العيد، وهو من أشد الاقارب خبثا ودهاء، أن أنفخ في قصبة من تبن أدخلَها بين الرأس والصدر.

ظللت أبكي وأنفخ، حتى المساء حيث نمت على الغيظ.

لن أسمح لعمي العيد حتى الممات، تلك الفعلة العدائية التي ارتكبها في حقي وحق القطاة المسكينة وحق أبي أيضا...

هو نفسه عمي العيد، وهو دائما من يتولى المهام القذرة بالتعبير السياسي. هو نفسه من اختطف سني بعد أن رميتها للشمس، قائلا، أعطيك سن حمار، لتعطيني سن غزالة. اختطفها وعكس الطلب. هو نفسه، من حملني بين ذراعيه، وقصد بي الطالب، (معلم القرآن) وفتح فمي، ليتولى سيدي أحمد البوكحيلي، وهو من الشرفاء، عملية البصق في فمي بعد أن مضغ لقمة من كسرة شعير مشبعة بالزبدة، أعدت له، لهذا الغرض، حتى أنال من بركته، فأكون مثله.

انفجرت بالبكاء، ولم تحزِنّي العملية التي قام بها الطالب، بقدر ما أحزنني ضحك عمي العيد ومن معه، وسخريته مني. ويظهر لي الآن أن ما آلمني أكثر هو هذا المصير الذي آل إليه، عنصر من أولاد الوطار، الحراكتة، الأعزاء.. ولست أدري من أين جاءني هذا الشعور، ولربما كان عمي العيد يركز على هذه النقطة بالذات.

أنت بكل قدرك وجلالك، ولد ولد الحاج محند أونيس، يبصق في فمك، هذا البوكحيلي.

علمت فيما بعد أنهم لم يفعلوا ذلك مع غيري، وأدرك حاليا أنني كنت محط رعاية خاصة، ولربما كنت تحت رقابة وعناية جدي وأبي الصارمتين.

أكيد أن شيئا ما فيّ، كان يلفت النظر.. حتى أنهم كانوا يطلقون عليّ لقب الشيخ.

والشيخ هنا بالمعنى الإداري التركي، أي رئيس القبيلة أو العشيرة أو القايد.

أرسلني جدي إلى "غورماط"، وهي ضيعة بها أشجار غلال، واشجار صفصاف تبدو خضراء طوال العام، مصحوبا بكمية من القمح، لأشتري له ما عندهم من فاكهة، وهي ليست في معظم الأحيان سوى البرقوق الأبيض.

وصلت، إلى هنالك، وكانت الفرس التي أمتطيها، طيبة جدا معي، مطواعة، تستجيب لكل حركة من حركات يدي أو ركبتي.

لا أدري ما قلت وما قال لي الجنّان، إنما عدت فرحا، أسارع للقاء زيزي الذي سيفرح ويظل يفخر بي... لكن في طريق العودة، ولربما في منتصفه، أبصرت شيئا براقا، مزركشا، مستطيلا ومستديرا.

كان لا بد أن أعرف ما هو هذا الشيء، وأن أرى ما إذا كان يصلح لي أو لجدي، أو للأسرة الكبيرة عموما، و ما إذا كان يؤكل، (سيكون من نصيبي وحدي بلا ريب).

نزلت، من على الفرس. وكان النزول سهلا، فيكفي أن يستدير المرء على ظهره أو على بطنه، ويتزحلق. ليجد نفسه في الأرض واقفا على قدميه.

اختطفت الشيء المستدير الطويل بعض الشيء، المزركش برسوم وألوان مختلفة، الرائع الجمال.

أول ما تبادر إلى ذهني أنه حلوى، فحاولت قضمه، إلا أن ذلك لم يؤد إلى نتيجة، فلا طعم له، ولا رائحة.

وضعته في المخلاة بعد أن تعشقته طويلا، إلى جانب الفاكهة التي بدأت أشعر بثقلها على كتفي. رفعت رأسي أتأمل ظهر الفرس الذي بدا لي حينها أنه أبعد ما يكون عن البلوغ، أبعد من قمة سيدي ارغيس.

لم أندم ولم آسف على نزولي، واتكلت على الله عائدا، متمنيا من صميم قلبي أن أعثر على صخرة أصعد فوقها فأقترب من مبتغاي، أو أن يلتحق بي أحدهم، فيساعدني على الركوب. أو على الأقل أن يريحني من المخلاة التي بدأت تثقل علي وتجعلني أتوقف قليلا أستعيد نفسي، ثم أستأنف، بعزيمة وإصرار.

لم يحدث شيء من ذلك، وكان بصري، يتنقل من الدار التي تقترب كلما سرت، ومن الأرض، حيث أراقب، مواقع قدمي، خوفا من الحجارة الكثيرة، ومما قد يكون تحتها من عقارب أو حيات.

استقبلني الحاج بتقطيبة من حاجبيه والاستفسار من عينيه، عما جرى، خاصة وأنه يعلم علم اليقين، أنني لا أقع من ظهر الفرس، إلا من تلقاء نفسي، رويت له ما حدث، فاستبشر، وأفهمني أن ما عثرت عليه، هو قلم يستعمل للكتابة، وقال بالحرف الواحد، ستكوت شيخا، وأي شيخ. يا لها من بشارة.

كان جدي يبحث عن وريث لمشيخة أولاد الوطار، وهو لم يكن سوى رئيس قبيلة، وربما وجد فيّ بعض الملامح الدالة على أهليتي، بعضها، يلحظه من خلال سلوكي وتصرفي، وطريقة نقاشي معه، بالنسبة لباقي أولاده وأحفاده، (وأنا لا أذكر أي شيء من ذلك، فكما قلت سابقا، يندر أن يحتفظ الإنسان بصورته في ذهنه.)، وبعضها، يعيده إلى الصدف وإلى الغيب. فصورتنا عن أنفسنا هي فيلم يتأرجح ولا يتقدم أو يتأخر، وليست ساكنة، يمكن التشبث بها.

لو كان جدي حيا، لقلت له، إن قلم الرصاص، ذاكم كان بشارة، لا أدري ما إذا كانت خيرا أم شرا، فالكتابة يا زيزي العزيز، مشقة بدنية ومعنوية. عليك أن ترعى شجرة الموهبة طوال الوقت، تسقي، تقلّم، تمدها بالسماد، تظل تقلب الأمور على جميع أوجهها، تبكي إذا لزم

البكاء، تُعلِّب الحزن، في علبة شفافة، وتختزنه، لتستخرجه من حين لآخر، فتعيد تطعمه. إنك نصف إنسان بالنسبة للآخرين، أو بالأصح، إنك إنسان ونصف إنسان، إذا ما تعلق الأمر بالإدراك وبالإحساس، وبالصيغ الرائعة التي تستعصي على الآخرين.

ولئن كان اسمي الآن يرفع رأس كل أولاد الوطار وكل الحراكتة بمختلف أعراشهم، ومناطقهم، وكل الجزائريين بمختلف أجناسهم، فإن ذلك لم يتم، بغير معاناة مريرة، واستماتة ومكابدة، وليس ببساطة وراحة بال ياجدي العزيز.

غير أني أعتز متبجحا بأنني لم أدخل يوما مدرسة فرنسية، فبقيت، طينة جزائرية طاهرة، صلصالا جزائريا، من قمم وروابي تيقيلالين وتارقالت، لا مثيل له في أي مكان من العالم...

أنا في كفة، وكل من صنعتهم المدرسة الكولونيالية في كفة أخرى. ليس لي مرجعية في لامارتين، أو مونتيسكيو، أو فيكتور هيغو. لا تناصص ولا تلاصص، ولا تفاهم لي معهم.

مع كل الاحترام والتقدير لعبقرياتهم، ولعبقرية أمتهم.

إني إنك... وإننا معا... وكل شعبنا، سيدي ارغيس، الذي أرغى وغاص وها هو، ها هنا، ينشر بصره على الكون.

لـم أجـد عنـدك مكتبـة، لا ولا حتـى كتـاب، أو حتـى ورقـة واحـدة مكتوبـة، ولـم أجد من يشتغل بينكم بصياغة القول الجميل، أو حتـى يحفظ شيئا من الشعر، كل ما هنالك هو بصقة الطالب المشحونة بكسرة الشـعير فـي فمـي، وبعض مـا كانـت تردده، أمـي مـن حكايـة الجازيـة وذيـاب الهلايلـي. ومسـاوئ خليفـة الزنـاتي المبتلـى بـالعيوب السـبعة، مقابـل بطولـة ذيـاب، وذكـاء الجازيـة وجمالهـا الخـارقين، وحكايـات الرهبـانيين، الـذين يخرجـون مـن المقـابر، ومـن الخـرب الخالية، شقر، صهب، عيونهم زرقاء، كثيرا ما دلوا أحدهم على كنز ثمين، وكثيرا ما تزوج واحد منا برهبانيـة... وما تظل تبثه فينا من شكاوى من نسائك ومن الزمن. كانت تملأ قلوبنا بالفجيعة، خاصة أنا الذي لم أكن أفترق عنها كثيرا، بحكم الصحة التعبة.

ما قرأته وأثار فضولي، يتمثل في تأمل تلك الملايين من أعشاش العناكب المختلفة الأحجام، والتـي تتجـاور فيمـا بينهـا ومعنـا، بشكل يثير الفضول والإعجاب والشفقة، فلا هي تبتعد عن العش الأبيض ذي الثقب المستدير، ولا هي تعترض طريق أحدنا، حتى وإن حاول استفزازها، يبدو، وكما لو أنها تخجل منا، وتعمل جاهدة، على إفهامنا بأن مهمتها الوحيدة، هي حمايتنا من الذباب، ومن باقي الحشرات، تتلطف معنا، حين تتراجع إلى الخلف وتظل تطل وتنتظر انصرافنا.

إلى جانب الأعشاش البيضاء المتسخة هذه، أقرأ في الآفاق وفي الأبعاد، وفي روابي وقمم الجبال العارية، التي تحاصرنا من كل ناحية.

أغافلكم، فأخرج وحيدا، لأقف وراء الجامع، مواجها الغرب، حيث يمتد الظل مع الظهير، فيهب البحري العليل.

ينطلق بصري من فوق، وينزل حتى أسفل الوادي، الخالي يومها من الأشجار، تتمثل خضرته الوحيدة، في مربعات من اللفت، والجزر، وبعض شجيرات القصب. لم نكن حينها نعرف فلاحة غرس الشجر، حتى التينة الوحيدة، المغروسة أمام دار الضياف، لا تثمر، وتختلف الآراء حول سبب ذلك، من قائل بأنها لا تحب السقي، ومن قائل بأنها محصورة بين الجدران، ولا تجد متنفسا. عدا التين الشوكي المسيج بصور يتراوح ارتفاعه بين متر ومتر ونصف، الذي يثمر كل عام، تحت الرعاية السامية لحضرتك.

أرفع بصري، فيخترق أكواخا منتثرة، جدرانها من الطين الباهت، وسقفها من الديس الملبس بالطين...

أيام "التيفيس"، كانت تستوقفني الجنازات المنحدرة من كل صوب، حتى تلتقي مع بعضها عند المقبرة...

بدأت قليلة، ثم تكاثرت، وقل شيئا فشيئا الدفانة المرافقون لها. كان الناس كلهم يموتون في الوقت الوحد، وقد نجونا نحن لسبب لا أدريه، رغم أن أبي أصيب بالمرض وظل عدة أيام يهذي بكلام غير مفهوم ونحن نتفرج عليه مذعورين.

كان يقال يومها، من لا يؤمن بالموت، فلينظر إلى ديار العرب. وكانت الديار فعلا، تفرغ من الحياة، ويسكنها السكون.

أتجاوز الأكواخ وأنتهي إلى الأفق، أتابع، قمما عارية جرداء، بنية اللون، هي الحد الفاصل بيننا وبين السماء، وخلفها صدراتة، التي تقع في السفح الآخر، عند قدمي، جبال وعرة، تتواصل مع الأطلس التلي، من كل الجهات. تنطلق شرقا نحو سوق اهراس، تعبر خميسة مولد البطل الكبير **تاكفاريناس** وشمالا نحو قالمة، فعنابة والبحر، ويبدو أننا تخفَّيْنا خلفها من كل هجوم محتمل ومن الرياح العاتية، القادمة من البحر.. نسميها تلك القمم الحزينة، تيقيلالين، ولا ندري ماذا تعني، هذه التسمية.

أدير بصري، يمينا بعض الشيء، فيقابلني جنان البايلك، بصفصافه الأخضر، منبع وادينا العزيز الذي يسمى وادي عين الصنب (الأصنام)، المنساب بإصرار، حتى يلتحق بوادي الشارف، ليضع يده في يده، وينطلق معه فيرفد وادي سيبوس، حتى بحر

عنابة، مرفوقا بأسراب من السمك التي ستطوف الدينا كلها، مفاخرة بمنبتها.

عندما يفيض وادينا، وكثيرا ما يفعل ذلك، تصبح ضفافه، تلمع بالفضة. ذلك أن آلاف الأسماك، يلفظها السيل، فتلقى على مسافة عدة أمتار من المجرى تنتفض وتموت.

نسمي السمك بالشاوية، "إيسلمان" وأعتقد أن أصل تسمية، السلمون من عندنا، فهي تتضمن كلمة الماء، مثل آمون، وتيميمون وغير ذلك ، وككل التسميات البربرية، تتكون من مفردتين هما إما العريس أو العروس أو العرس، وإما الحصان، ثم الماء الذي هو بصيغة الجمع دائما، آمان.

نتواصى بعدم أكله، فشوكه مميت. وهناك حكايات كثيرة في هذا الموضوع، لكنها غير مؤكدة.

مع ذلك، فأنا وابن عمي السعيد أو الحبش أو غريو، كثيرا ما شوينا السمك، عندما كبرنا، قليلا، ولم نمت، كما هو معلوم.

أعود لأواجه الشمال، فأجلس فوق تلك الصخرة الكبيرة المستطيلة، والتي يتضح جيدا أن يد الإنسان عملت على نحتها، وعلى إيصالها لتجانب المرآب قريبا من دار الضياف.

ينطلق، بصري إلى تلكم العُزْمة، (الكومة) التي تنساب منحدرة، في شكل نصف دائرة، في قمتها كومة أخرى صغير، نسميها "ثاكبوست نغريو" ، وثاكبوست معناها الشاشية، وقد تكون التسمية، تسربت إلينا من العبرية، أو من اليونانية، وهي لا تستعمل إلا عندنا بالشاوية، ولربما في تونس أيضا، يقولون الكبوسة، إن لم تخنني الذاكرة، وهي نصف كرة تكون في الأول ناصعة الحمرة، ثم يبهت لونها، حتى يفقد كل صفة، أو نعت. أما غريو، فهي تسمية مستحدثة لابن عمي السعيد، الذي يطلق عليه كذلك اسم الحبش. يكبرني قليلا، وأشترك معه في كثير من الألعاب والاحتيالات على العائلة، حتى أننا بعد أن توجب علينا الصوم، كنا نتخفى عن أقاربنا أولا، ثم عن الله، ونكسر صيامنا بأي شيء نجده.

غريو أقرع، لم تنفع جميع المراهم، في علاجه، إلى أن استسلم للأمر، ورضي بقدره.. ولا أحد يدري من أين جاءت كلمة غريو، سوى أنها تشير، إلى اليد (العروة) التي يحمل منها إناء ما.

جبل سيدي ارغيس، يقال إن في قمته شجرة مباركة، ولية، تنزف دما، كلما جرحت، وأن هذا الجبل دخيل على المنطقة، حيث أنه جاء من سوريا.

كان هناك هادئا هانئا، حالما، وربما متدفئا بمختلف الأشجار والنباتات، أغضبه أمر ما، فهاج وماج و"رغى وغاص" صرخ فبلغ

صوته عنان السماء، واقتحم أعماق الأرض، وظهر عندنا، فاقتربت تسميته، من فعلته، ولو أننا أضفنا إليها نعت السيد، إجلالا وتقديسا له، وربما شكرا أيضا على أنه اختار منطقتنا، ولعل الأمر يتعلق بتلكم الشجر الدامية، التي ما من شك أن كل واحد منا يتصورها عذراء طاهرة، اعتدي عليها، وهي التي ركبته وهربت به.

يبعد عنا سيدي ارغيس بما قد يكون خمسة وعشرين أو ثلاثين كلمتر، وتحته، في سفحه، وسهله الفسيح، تتواجد قرية أم البواغي، ويمتد عرش الحراكتة العتيد، بما فيها فرع أولاد سعيد، الذين نحن منه، وأولاد عمارة، ويوجد هنالك من يحمل لقبنا إلى اليوم هذا اللقب الذي لا أحد يعطيه معنى.

لم أكن أيامها أعرف أسطورة *إيو* عشيقة *زوس* التي غار عليها فحولها إلى بقرة، أطلق سراحها في أرض الله الفسيحة، ووضع على حراستها إلاها له مائتا عين، مائة تنام، ومائة تظل مفتوحة يقظة تراقبها. اسم هذا الحارس العتيد هو آرغيس. وتقول الأسطورة، إن هذه البقرة، ينتهي أمرها إلى العودة إلى زوس في مصر، فتحبل من لمسة يده لها، ويحمل ابنها اسم أب آفوس، (يعلق ثروت عكاشة المترجم قائلا سمي كذلك لأنه جاء من لمسة اليد، ولا أدري ما إذا كان يعرف أن أفوس تعني في جميع اللهجات الأمازيغية، اليد)؟ ...

على يد ابننا هذا، يُقتل زوس، وهذا هو السر الذي يخفيه، ويتعذب من أجل عدم البوح به بروميتي، المغلل في السلاسل، تأكل الصقور كبده في النهار، ويستعيده في الليل، بينما الجنيات، ينشجن من حوله، يشجعنه على الصبر والجلد. ويروين مأساته.

ربما أرغي (صرخ) سيدي ارغيس، وغاص في الأرض، عندما ضرب الزلزال الكبير المصحوب بالطوفان، مملكة أوغاريت الشمرة، عقابا لقوم لوط، على فحشهم، وما تزال ذاكرتنا تختزن بقايا علاقة هوارة، ببابل وأور، والسومريين وأوغاريت؟ من يدري؟

أتشوق إلى الصعود إلى قمة سيدي أرغيس، وتقديم رجاء للشجرة المقدسة.

أبكي عند أقدامها، حتى تسألني حاجتي، فأقول لها جناحان يا لالاّ الشجرة.

تسألني، وما تفعل بهما؟

أخرج بهما وراء الجبال الصخرية العارية التي تحاصر دوارنا، فتقضي علينا بالاستسلام، والانكفاء على أنفسنا، وأطير بها في الشتاء، عندما تكون "الغرقة" تفرش كل الأرض.

لا شك أن المرء، عندما يكون في رأس ثاكبوست نغريو، يرى كل الأماكن البعيد، تبسة وسوق اهراس، وباتنة وعنابة، وعندما تعطيني

الشجرة الجناحين، أزور كل هذه المناطق، وأحضر منها لجدي جميع أنواع الفواكه، خاصة البرقوق الأحمر، والتين الأسود الكبير، وكذلك الزلابية في رمضان وفي غير رمضان.

إنني أفعل ذلك كل ليلة في خيالي قبل أن أنام، فليس هنا الشيء الكثير مما يمكن أن يحلم به الأطفال أكثر من معرفة ما وراء هذه الجبال، ومعرفة ما إذا كان هناك كون آخر غير كوننا هذا.

عندما تستدير الشمس غربا، أمشي جنب الحائط الطويل الخالي من أية نافذة أو فتحة، ثم أستدير يمينا، حيث باب اصطبل الخيل، وهو عبارة عن بيت مستطيل طويل وعريض، له باب يضفي إلى غرفة صغيرة، تضفي بدورها إلى حوش العائلة، وبعزيز ابن عمي الدراجي، عادة ما ينام هنا أو في الجامع.

أسير قليلا لأجد نفسي عند البئر، أو بالأصح عند نصفه الخارجي، أما نصفه الداخلي، فهو يقع في الباحة الكبيرة قبالة دار الضياف، وجنب دارنا، وقد قسم بجدار مستطيل، يصل حتى حظيرة الأغنام. قبالة مجموعة من المطاميرالمندسة تحت الأرض، تنتظر فتحها أيام الشر، أو أيام الخير.

هذه البئر ماؤها معدني، يعطي نكهة معدن لا نعرفه، فلا هو الكبريت، ولا هو الشب، ولا هو الحديد، وهو لا يشبع، ولا ينفخ

البطن، مهما شرب منه المرء، بارد، غزير باستمرار، تعود مهمة تنظيفه، أو استخراج ما قد يقع فيه، رغم الحيطة الكبيرة، إلى بحوت ولد عمي مرزوق المسكين.. ومن بعد إلى مجيد الابن الثاني لعمي الدراجي، الذي، يتجرأ على كل الأشغال والمهن، بما في ذلك، البناء. وله أكثر من إنجاز في هذا الحي المتحرك.

وأستغرب كيف لم تلتفت خالتي عوقة، أو عمي الدراجي، إلى ضرورة إرسال أحد الأولاد إلى صدراتة، مثلما حصل مع بعزيز، قبل أن ينكب، ومثلما تفعل أمي وأبي، حيث يتواجد أخي عبد الحميد هنالك، يقيم عند إحدى الأسر، يتعلم، أو كما حصل معنا فيما بعد، فقد ظل والدانا حريصين على أن لا نغادر المدرسة، ولو بالتحايل، ودفع الرشى، مثل ما تم مع أخي الذي يحمل اسم والد جدي أونيس، الذي يليني في السن، بعد أن تجاوز سن الدراسة في المدرسة الفرنسية. أو حتى ما فعله جدي مع أبي حيث أرسله إلى قسنطينة ليجالس الشيخ عبد الحميد بن باديس، وسهل له أمور الحصول على رخصة السياقة وما تبعها.

لو أن مجيد، أو عمار أو غريو، نالوا قسطا من المعرفة، لتغير مستقبل هذه المنطقة برمتها.. لكن يبدو أن عمي الدراجي، كالطاووس لا ينظر إلا لريشه.

أجلس متفردا، عند حافة البئر ، وينطلق بصري إلى البعيد، حيث تعترض جبال تارغالت، الجنوب الشرق، ممتدة حتى الشرق.

تارقالت هذه، قمم وروابي وأخاديد، عارية، جرداء، يضرب فوقها السراب صيفا، أما شتاء، فيلفها ضباب رمادي.

تارقالت تفصل بيننا وبين المسكيانة (وترجمتها أميس الكاهنة، أي ابن الكاهنة ولربما مفردة الكاهنة لا تعني المعنى العربي إطلاقا، ولا تنطق كذلك إلا تحريفا)، وإلى الشرق منها، الموقع التاريخي لباغاية، الذي كانت تسمى المنطقة كلها عليها، وفوقها بحوالي خمسة وعشرين كلمتر تقع خنشلة، بوابة الأوراس، العتيدة.. أما غرب تارقالت، فتقع العوينات، وهي موطن للحراكتة أيضا، وتحادد النمامشة، ثم وادي الكباريت فالونزة فمداوروش فسوق أهراس في الجنوب، وما نسميه عادة بالتل، ولا نستريح إليه كثيرا، فالتلية كما يبدون لنا أقل نبلا وهمّة من غيرهم.

أقول الصح، أبوح بسر من أسراري الخطيرة، إنني، وأنا أدخل الفراش لأنام، أبدأ بزيارة قممي الحزينة، تيقيلالين سيدي ارغيس، فتارقالت، وذات ليلة، حملني سيدي ارغيس على ثاكبوست نغريو وغطس بي في أعماق الأرض، متجها نحو الشرق، وهناك وجدت جماعة شبه محنطة، قيل لي، هؤلاء جدودك الخمسة: أونيس، ثم أبوه على، ثم فرحات، ثم بلقاسم، ثم علي.

مدوا جميعا أيديهم في حركة واحدة ومرروها على رأسي من جبهتي إلى قفاي.

واضح أنهم باركوني. واضح أنهم حمّلوني مسؤولية ما، كان جدي الحاج يراها ولا يستطيع الإفصاح عنها.

ومن زمنها، فأنا واحد من سكان تلكم القمم والروابي، إن نزلت حينا، فلكي لا أطيل المقام .

في كل واحدة من تلكم القمم، تقيم إحدى بنات عمي، حبيباتي اللائي لم أفصح لأية واحدة منهن عما أكنه لها، ولم أكن لهن أكثر من مشاعر الأخوة.

في إحدى تلكم القمم تقيم فتيحة، في صورة تتبدى وتتخفى، لا تتغير مهما تغير الزمن.

في اسطبل كبير، ومن خلف، المغنين والراقصات، ووراء ذبالة غازية، مترنحة، تجلس، وسط كوكبة من الصبايا، مرتدية ثوبا أحمر، على كرسي، أو ما يشبهه، ظهرها إلينا، وصدرها إلى الجهة المقابلة، لكن وجهها يلتفت إلينا، وإليّ بالذات.

لا أدري لماذا كنا نركز نظرنا على بعضنا البعض، هل سألت عني، فقيل لها إنه ولد ختّاتة، وما شأنها هي إن كنت ولد ختّاتة أو لا.

كما لا أدري كيف كان يبدو وجهي يومها وأنا الهزيل، هل لا ينظر الناس إلي إلا من خلال رأسي فينسيهم الباقي؟

سكنني أمران: هي، وأقامت إلى الأبد في المخيلة. وأنغام القصابة، ودقات البندير، وأقامت لأسابيع إن لم أقل لأشهر عديدة، إن لم أقل لطول العمر.

لا أدري كيف علمت أن اسمها فتيحة، وأنها من الأسرة التي تزوجت فيها للمرة الثانية خالتي فاطمة أمّ بعزيز. حضرية جاءت من عين البيضاء، إلى عرس قريب نائّة خشيمة، على بعد عدة كلمترات، من دار جدي...

لقد فزعنا لهذا العرس، كبارا وصغارا، ذكورا وإناثا، بعضنا وأنا منهم، جئنا في "الكروسة" يسوقها عمي الدراجي، بأناقة، ونبل، وبعضنا في "الفورغو" وهو عربة كبيرة مستطيلة غير مغطاة، ينتصب فيه مقعد السائق، ومرافق له أو اثنين عاليا، وبعضنا على الأقدام، أو على الحمير. فزعنا، وحسنا فعلنا.

لم تكن أمي معنا، لسبب لا يحضرني.

أكيد أنني كنت في حدود الثالثة عشرة، رغم أنه لم يكن يسمح لمن هو في مثل هذه السن، بتجاوز "الدراقة" التي تفصل بين الرجال والنساء، وإلا ما كنت أحتفظ بهذه الصورة بمثل هذا الوضوح

والنصاعة. أما هي فأكيد كذلك، أنها في مثل سني، أو لربما أكبر أو أقل، بقليل.

نحن الأطفال، حين نحب أحدا، نتمنى أن يتحول كلانا إلى الآخر، تتساكن أرواحنا في جسدينا، وتحوله، إلى جسد واحد، لننعم بالرضا والهناء، وبصفة خاصة بالتفرد ببعضنا، بعيدا عن الآخرين وفضولهم.

يضيف أحدنا الآخر إلى نفسه، فيقلل من غربته ووحشته... لربما.

خجلت فيما بعد أن أسأل عنها وعن مصيرها، وعما فعله الله بها. وسأظل كذلك حتى هذه اللحظة.

اتركوا أحبابكم في مأواهم بقلوبكم ولا تزعجوهم بالسؤال عنهم، فقد يختلفون عما توقعتم. أو قد يفرون من قلوبكم، كما تفر العصافير من أوكارها...

دعوا السر سرا.

أقول في نفسي باستمرار بعد أن كبرت قليلا.

كنت جئت دار جدي من مسكننا الجديد بدوار الحميمين. ولم يكن معي أحد من إخواني، وكنا خمسة ذكور يومها، وبنتان. مات خامسنا واسمه محمود، وهو في سن القماطة. وأذكر جيدا جدا، أنني

أحسست بموته وقلت لأمي ستكون عندنا جنازة، يوما قبل حدوثها، مع أنه لم يمرض سوى يومين.

رأيت جدرة تحترق في النار بالمدخنة، مع باقي قطع الحطب التي كانت معها، وتخرج صمغا يشبه ماءاً له زبد أبيض وله فحيح.

علمت أن ذاك الفحيح هو الموت، ولم أتمالك... وقبلها بأقل من شهر، رأيت الموت أيضا، فقد جاءتنا شريفة، قريبة أمي وزوجة عمي العيد. كانت مريضة، ويعلم الله بم هي مريضة، غير أن وجهها أصفر، ما أن تأملته، حتى تحدث معي الموت.. قال سآخذها، صباح غد.

أخبرت أمي أن تتأهب لجنازة تخرج من دارنا، فماتت شريفة في اليوم التالي.

لم أر الموت كثيرا، ولكني أعرفه، بمجرد الالتقاء به، أو اقترابه مني، وحين يحضرني، سأسأله عن حاله، وعما إذا كان يذكرني.

وأنا أتأمل قمم تارڤالت العارية أتذكر نانّة برنية، التي عمرت قرنا واثنتي عشرة سنة، وهي تعيد حكايتها عن الأتراك وهم يهربون من الفرنسيس، وقد أخذوا هذه الوجهة: الشرق.. ذارعين قمم تارقالت، غلاظ قساة يبقرون بطن الحامل، ويخطفون من الطاجين الكسرة وهي بيضاء عجين، ويهربون مبربرين بشتائم لا نفهمها تقول نانّة برنية.

كما تحدثنا، عن الأعداء المتواجدين بصفة عامة في هذه الناحية.

تقول، الحراكتة والنمامشة، أعداء أبديون لبعضهم. كان بينهم دائما وأبدا ثأر. يثأرون بواحد، فنقيم الطبل، وهو أن تطلي الزوجة أو إحدى قريبات القتيل، وجهها ولحمها بـ"الحموم" (السخام)، وهو الرماد الأسود الذي يعلق بالطاجين، أو بالقدر، وتشق ثوبها، وتظل تندب وتنوح، ضاربة للطبل، الذي ربما تعلقه في رقبتها، إلى أن يثأروا لفقيدها.

ربما مثلما كانت تفعل الخنساء وهي تندب كليب.

هل كانت هذه العادة من تقاليد البربر، أم انحدرت إلينا من أمهاتنا العربيات، أم اكتسبناها من أخوالنا أولاد نايل.

نقيم الطبل، حتى نحصل على ثلاثة رؤوس منهم، نجعلها أثافي. نطهو عليها البومنعي، وهو عشاء الميت.

ربما كانت عملية إقامة الطبل، نوعا من الحرفة والصنعة، تثير الحزن، وتستثير الهمم، فقد رووا أن "شيادا" يبيع الزيت على حصانه، توقف عند بيت، تكاد سيدته تموت حزنا وأسى، فعبر عن تعجبه لكل هذا الحزن، وعن مواساته لهذه المخلوقة، فقال له أحدهم، إن ما تراه مجرد تمثيل.

اشتد النقاش بينهما، حتى تراهنا بالحصان والزيت، وبقطيع من الأغنام، إن ربح الشياد الرهان.

في الليل، أطل الشياد من شق في "ستار" الخيمة، حيث تقيم المرأة، فواجهته، متعطرة مستاكة، ترفل في الحريرالمزركش، في حالة ودر مع عشيق لها.

في الصباح، بادر المسكين، وسبقها إلى الطبل، علقه في صدره، وراح يضرب بحماس وصدق:

أنت قلبك بات فارح وأنا قلبي بات سارح

علِّي بات معاك البارح وادّالي زيتي وحصاني.

هايْ جوحْ هايْ جوحْ.

يقول ابن خلدون إن سكان تبسة ليسوا من البرانس، ويقول، الإدريسي عن سكان نفطة، إنهم تبربروا وإنهم إلى الآن يستعملون اللاطينية. ولربما كانت المنطقة كلها، من نفطة إلى توزر والجريد، وأجزاء كبيرة من تبسة، من بقايا البيزنطيين أو الفاندال، ومنهم من تبربر، ومنهم من تعرب...

كنت أتحدث في هذا الموضوع مع الشاعر التونسي الدكتور الطاهر الهمامي، فلما استغرب الأمر، سألته هل ملامح الشاعر

مصطفى خريف وهو من المنطقة عربية، أو صحراوية على الأقل؟ فبادر بالقول: لا بالتأكيد.

في هذه الحروب الثأرية الضارية، والتي لا شك أنها تتعدى المشاكل الشخصية إلى التدافع عن احتلال الأراضي الفلاحية، والمراعي. ولربما إلى العداوة بين البربر والرومان، يتضامن أولاد نائل مع الحراكتة، ويمكن إلى اليوم أن تسمع لدى الكبار من يقول لك: النوايل إخوة لنا، ويقول عكس ذلك عن أولاد دراج، الذين رغم زعمهم أنهم عرب شرفاء، إلا أن اليعقوبي يقول في تاريخه، إنهم بربر من صنهاجة، كانوا في الأندلس حتى عهد الإمارات على رأسهم زعيم اسمه مسيلة بن فرج يوالي الدولة الأموية.

وقد كان أولاد دراج من حلفاء النمامشة، ورغم بعدهم الجغرافي عنهم، فإنهم متواجدون في الشريعة والعاتر ومناطق النمامشة بقوة، على عكس مناطق الحراكتة.

لا شك أن المعارك كانت تتعلق بالأرض قبل أي شيء آخر، فالحراكتة لا يتواجدون في سفح الأوراس الغربي ، فحسب، بل لهم تواجد في السفح الشرقي الجنوبي، وهم يحاددون النمامشة، من جهة أولاد جلال وسيدي خالد، وخنقة سيدي ناجي وبابار وغير ذلك، ولا شك أن المعارك كانت شاملة وعامة، وأنها تدوم سنوات وسنوات.

في زمننا كانت العلاقة جد طيبة، فبعد موت فنان الحراكتة الكبير، الذي يغني بالعربية وبالشاوية بنفس السهولة، عيسى جرموني، رحمه الله، خلفه صالح العبيدي، (وإن لم يكن نموشي) وهو مغني بارع الصوت والجمال، كان عمي الدراجي يقصد تبسة لاستحضاره.. (سألت عنه بعد الاستقلال، فلم أعثر على من يعرفه من الشعراء الشباب). ولربما انساقت رجله مع الاستعمار، فأطفأ نفسه، واختفى. كما أن الرقّامة وهم الذين يتابعون تنفيذ الرسوم على الزرابي، كان يؤتى بهم من تبسة، دون أي حرج.

لا شك أن العلاقة بين النمامشة والحراكتة، اكتسبت صبغة الجوار المسالم، والعادي منذ زمن بعيد، وبالأصح منذ سيطرة فرنسا على كل المناطق، فلم يشهد جيلنا حادثا عروشيا، يحمل طابع الثأر.

كنت صغيرا لا شيء في ذاكرتي، إلا ما ألمسه من حولي وما يضيفه الناس، وكانت ذاكرة الجميع، ممحوة، مطموسة، لا تتعدى ما عاشته أو تعيشه، أو بعض الأساطير والخرافات. لا شيء في الذاكرة الجماعية، عن الرومان والبيزنطيين، عن دوناتيوس ابن باغاية القريبة من هنا، وثورته الدينية والاجتماعية، وعن الأعراش المنفية من الشمال القسنطيني إلى باغاية، وعن **أب أوليي** الروائي الأول في العالم صاحب **الحمار الذهبي**، الذي لا شك أنه قطع جبال تارقالت

وتيقيلالين، وصال وجال، وارتوى من ماء وادينا ونهق وهو يشتم رائحة أنثى ما.

آب أوليي الذي أفهم الآن أن اسمه لقب مكون من كلمتين، هما أب وتعني ذو أو صاحب والنسبة عموما، وأوليي وتعني الأغنام، وهذا ما ترجمه العرب فيما بعد بالشاوي أو الشاوية، ولا شيء أيضا، عن القديس أوغيستان ابن سوق اهراس، الذي كان يتعلم بمداوروش على بعد أقل من عشرين كلمترا جنوبا، النحو والصرف وعلوم البلاغة، ولا عن الأصنام (التماثيل) التي سميت عيننا بها، أو عن المعارك بين الفنيقيين وبين الرومان، أو بين الواندال وبين البيزنطيين، ولا عن سنابك خيول يوغرطة أو ماسينيسا، أو العملاق تاكفاريناس، وهو في السبعين يلاحق فرسه فيلحقها ويركبها، ونسي الجميع الاصطدامات التي حدثت بين الجيوش العربية الفاتحة، وبين ملكة البربر، الكاهنة، التي لم يحتفظ لها التاريخ سوى ببئر (بير العاتر بتبسة) يحلف الناس برجاله حتى الآن، وهم لا يعرفون، ما إذا كان رجال البئر هؤلاء مسلمين، صحابة، أو تابعين، أو من رجال الكاهنة، وقلّ من يعرف معنى كلمة المسكيانة.

ربما هذه هي الأرض التي أحرقتها الكاهنة، عندما تراجعت منهزمة، وقد تكون أقامت خيمتها هنا، حيث دارنا أو على وجه التدقيق، عند العين، ها هنالك، ولربما بئرنا هذه، كانت موجودة من

أيامها.. وأنها صمدت كثيرا في الدفاع عنها. لا شيء عن الأبطال الذين واجهوا الزحف الفرنسي، منذ ما يقل عن قرن، في كل شبر من أرض الجزائر.

كل ما علق بذاكرتنا، جاء على لسان نانّة برنية، وهو الكسرة التي يخطفها الأتراك الهاربون من الطاجين، والأجنة التي تطرد من أرحام أمهاتها.

كل ما علق بالذاكرة الجماعية لنا هو الصلاة والصوم، والحج وإخراج الزكاة (المهمة التي كان يقوم بها عمي الدراجي بانتظام وإتقان)، وترتيل القرآن الكريم...

الدولة الحفصية لم يبق منها سوى بعض أقاويل وحكم، في هذه المسألة أو تلك، منسوبة لسيدي على بلحفصي، والدولة الحمادية، أو الفاطمية، أو الرستمية، كلها، فقدت صلتها بنا. وفي العاصمة والمدن الكبيرة، لم يبق التعبير عن عواطفنا سوى بالتغني بالقبة الخضراء، وبالموت، وليلة القبر، وفاطمة بنت الرسول، والصلاة والسلام على الرسول.

اختزلت عواطفنا، في رثاء أنفسنا.

لقد حوصرت ذاكرتنا، فلم يبق فيها إلا الثابت بيننا وبين ربنا، وبعض ما يستيقظ الآن بسبب الأخبار التي تأتي من قسنطينة، عن

الشيخ عبد الحميد بن باديس، والدكتور سعدان، والمعارك بين اليهود والعرب، والتي لحقت منطقتنا، وقد استولى أحدهم على درّاسة، ظل يصرخ، وهو يجرها إلى داره، بأن السعر سيكون أخويا، فرنكا واحدا، وأن الجميع إخوة، إلى أن انتزعها منه الجندرمة، وقادوه إلى السجن أو إلى منفى كيان.

ذات مرة، قال خطيب جامع مداوروش، سي محمد فارح، إن العرب، كانوا على قدر كبير من العلم، وأنهم عرفوا حتى الكيمياء، ودون أن يعرف أحد معنى لكلمة الكيمياء، إلا أن الحديث عنها ظل يتواصل، وينتقل، من شخص لآخر، بتعجب واستغراب، وكما لو أن العرب امتلكوا القنبلة النووية.

كيف يتمكن استعمار ما أن يمحو من ذاكرة الشعوب، ما يشاء، وأن يبقي فيها ما يشاء، وأن يشحنها بما يشاء.

لا بد من مؤسسات تخطط، ومؤسسات، تحقق وتنجز، ومؤسسات تراقب...

ما نعرفه، هو أن المؤسسات الدينية الوحيدة التي بقيت عاملة، هي الزوايا، ودون أي تحامل، يجب التدقيق في دورها، في إنجاز عملية طمس أشياء معينة من الذاكرة الجزائرية.

ومهما يكن الأمر، فإن الذاكرة لا تموت إلا بقتل حاملها. تقتلع. ولا شك أن كل من يعرف شيئا في هذا البلد، وعلى مدى ما يزيد عن قرن تمت تصفيته.

الظاهر كذلك، أن العملية لا تتعلق بالمحو، إنما بالطمس، المتواصل، وتظل الذاكرة، في حالة إغماء، لكن مستعدة في أية لحظة للاستيقاظ، والانتفاض ليزول ما علق بها من غبار، واستعادة، المخزون، وإن بصفة مشوهة.

هذا اللباس الذي يرتديه الفارس، لكي يؤدي مشواره، شظايا من الماضي، الرزة الصفراء والخيوط السوداء التي تشدها، ثم البرانس وألوانها، ثم السلاح وأنواعه، السيف والقوس بولحراف (من خشب) ثم البندقية النارية.. حتى هذا المشوار، الذي ينجزه الفارس، بعد أن يتخدر هو وفرسه، بإيقاع لحن مرواح الخيل، والاهتزاز، أليس هذا المشوار، حالة صرع، ينتقل فيها المرء بين كهوف التاريخ وتجاويفها..؟

قطع من الضباب، تتلاحق من قرن لقرن، ومن قمة لأخرى، ومن سفح لجبل، حتى تشكل هذا الفارس البربري الروماني البيزنطي الفينيقي الواندالي، العربي، التركي...

يتكثف الضباب، فيكون المشوار، ثم يتبخر الضباب، وتعود الذاكرة إلى التبلد.

***

آه يا جدي العزيز. يا زيزي الحاج مُحند أونيس.

ليتني، أعرف كيف كانت علاقتي بكم جميعا، وبك أنت خاصة، حتى تقدمني على كل أبنائك وأحفادك، فتطعمني معك الكسكس بالحليب والسكر البرتقيزي، أو الكسرة الرخسيس المبسسة، أو "المطلوع" بالزبدة والعسل.

ماذا كنت ترى فيّ، أنا النحيف، الهزيل، الذي ظل قعيدا لم يستطع حتى أن يحبو ما يزيد عن عامين، وما أن وقف على رجليه، حتى قصدك، وتعلق بك.

***

وعدت أن أتوقف عند المقيمات في الورشة المهمة، المطبخ، ولكنني انسقت في الاستطراد، تطاردني الذكريات التي بدأت تنزع ثوبها العتيق، وتضع بعض المساحيق على وجهها، وتستعيد طفولتها وشبابها مكابرة معاندة.. مغرية.

إنهن، هن: نانّة يمينة، زوجة جدي الكبرى، وأم معظم أعمامي ونناديها نانّة خشيمة، لصغر أنفها وهي رائعة الجمال، وقد أورثت جمالها لكل أبنائها وبناتها، تحسن حبك الأمور، حتى لا أقول المؤامرات، وقد نجحت في أن تجعل نساء البيت، ما عدا أمي من قريباتها، وكلما تزوج أحد أبنائها، من إحدى قريبات أمي، نجحت في تطليقها، أوفي جعلها تموت.

بدأ مشروعها الأول في تطليق خالتي فاطمة، زوجة عمي الدراجي، وهي أخت شقيقة وحيدة لأمي. تركت طفلا جميلا ذكيا، اسمه عبد العزيز، ولكن الجميع يناديه بعزيز، الوحيد الذي دخل المدرسة الفرنسية في عين البيضاء، قبل أن تطلّق أمه، ويتحول إلى مريض مزمن، يصاب بالصرع، ويتبول في ثوبه الوحيد المتمثل في قشابية بنية، يلبسها طوال العام على اللحم والجلد...

يضربه الجميع، ضربا مبرحا، ولا يأكل إلا ما يأكله المتسولون وأبناء السبيل.. وجد في خالته، أمي، السند، فكانت تعامله معاملتنا، ولكن خفية، حتى لا تثور الثائرة.

بعزيز، يتحدث الفرنسية، أو على الأقل يفهمها، ويتولى الترجمة، منها وإليها، كلما توجب ذلك، ولو أنه يمكن في أية لحظة، إن تدخل أحدهم وصحح له كلمة، أن يثور، فيسب ويشتم، ويهجر المكان غاضبا، مبربرا بالشاوية: (سِيوَلْ شكْ) تحدث أنت.

وأحب شيء إلى نفس بعزيز القهوة، والتبغ.

بعزيز لا ينقطع عن الصلاة وعن القراءة في المصحف ولا شك أنه يقوم الليل، كما يصوم معظم أيامه.

عندما يكون يمشي، أو عندما يرفع عينيه إلى المرء، يسود الإحساس، بأن بعزيز، ليس سوى كتلة من الألم.

تزوجت أمه في عين البيضاء، وخلفت ولدا وبنتا، هما مجيد وجميلة، ثم ماتت. ربما فعلت ذلك حسرة على بعزيز، وعلى الحظ التعيس الذي أوقعها، ولربما بتأثير سحر ما أُعدّ لها، وهي في دار الحاج محند أونيس.

لا تبدو على نانّة خشيمة القسوة، بل على العكس من ذلك، تبدو مرحة، متفتحة، لا تخفي ودَّها لي، ولإخي حميد وأختي الكبرى

الزهرة. ولكن علاقتها بأمي أشبه ما تكون بعلاقة القط والفأر. وبقدر ما كانت أمي تفصح عن عواطفها، كانت نانة خشيمة، كتومة.

هن: خالتي زينب أولت (بنت) العابد، أو خالتي عوقة كما يناديها الجميع. وهي ابنة أخ نانّة خشيمة، وهي الزوجة الثالثة والأقدم على ما يبدو لعمي الدراجي، أنجبت منه، ثلاثة ذكور، وثلاث بنات، ثم أحيلت على المعاش، كما هو واضح، لتخلُفها زينب أولت الطالب. وتعني زينب بنت الطالب، وكما يظهر من اسمها، فأسرتها من حفظة القرآن الكريم، نناديها أيضا خالتي زينب، ولكن جدي وباقي أعمامي ينادونها الشانقلوط. والشانقلوط، تعني جان كلود وهو معمر فرنسي في المنطقة، كان فارع الطول، فاختصرناه إلى الشانقلوط، وسمينا زينب أولت الطالب، لطولها بدورها، باسمه. وتوجد قرابة ما بينها وبين نانّة خشيمة، لا أذكرها الآن ولكنني واثق منها، رغم أن بنت الطالب، عربية، ولا تتقن الشاوية، فإنها كانت تحاول باستمرار أن تفعل ذلك، فتكون محل ضحك وسخرية الجميع خاصة عندما تذكر المؤنث، وتؤنث المذكر.

هن: الطاوس، وهي زوجة جدي الثانية، ويبدو أنه تزوجها متأخرا، إذ ليس له معها أبناء، في إحدى عينيها بياض، قيل لنا إنه بسبب إتقانها لعمليات الطبخ، وأن هذا البياض تسببت فيه قطرة زيت، طاشتها، وهي تقلي حلواء لذيذة (المقروض).

لـم تكـن تظهـر كثيـرا، ولكـن كانـت ترعـى جـدي، رعايـة مباشـرة، والجميع يعاملها بهيبة واحترام.

هن: لالا العطرة، وهي الزوجة الثالثة لعمي الدراجي، وهي لطيفة، مـن جميـع النـواحي، سـريعة الحركـة، بشوشـة، زواجهـا مـن عمـي الدراجي، هو الثاني، على ما يبدو، ونعرف جميعا أن لها ابنا وبنتا في مكان ما، يزورانها من حين لآخر خاصة في الأعراس والولائم. وإذا مـا صـدقت ذاكرتـي ، فقد حضـرت عرسـها مـع عمـي، وكانـت ابنتها باريزة، محل الاهتمام.

العطرة مثل الطاوس، ***بلدية***. وهذا يعني بالنسبة لنا أنها تتقن ما يتقنه نساء الحواضر، من طهي الطعام والحلويات، وخاصة المقروذ، وطـاجين عـين بقـرة الحلـو، والجـاري (الشـربة الحمـراء) والمقرقشـات، وغير ذلك.

أمـا الـرفيس التونسـي والـرفيس الزيـراوي، والشخشـوخة، والمبرجـات، فهي من اختصاص الأخريات القديمات.

وأفتح قوسا هنا لأقول بأن جميع النسـاء فـي بيتنـا يتنـاولن "النفـة" النشـوق، وأن عمليـة إعـداده، لا تقـل عـن عمليـات إعـداد المؤونـة للشـتاء، فتجلـب رزم مـن التبـغ، تغسـل وتجفف، وتوضـع فـي مهراس

خشبي، وتدق بعد أن تخلط بمادة تسمى الترونية، يستوردها الشيادة عادة من ليبيا ومن فزان بالذات.. ولكل واحدة نصيبها.

ما عدا أبي، فلا أحد يدخن، وأبي نفسه يستحي من جدي ومن عمي الدراجي، وأذكر أن هذا الأخير دخل مرة حوشنا، فقال عندما لاحظ أن هناك أعقاب سقاير: هل عندكم إوز؟

لكأن جدي وعمي الدراجي، كانا يشعران بالرغبة، في تلبية حاجات الضيوف، وحاجياتهما في الملبس، أكثر مما كانا في حاجة إلى أمهات رجال ونساء، وأنهما قنعا، بما وهبهما الله من ذرية.

ربما هي ريح الحداثة بدأت تهب على دارنا.

ولئن كانا يرعيان، ويخضعان، لهاتين الطباختين، فإنهما لم يكونا يهملان تماما، باقي النساء، وكان لنانّة خشيمة الرأي الفصل في جميع القضايا، فهي أم لثلاثة ذكور وثلاث بنات. ومفتاح الصندوق في بيت المؤونة الأساسي، مربوط باستمرار بحزامها إلى أن آل إلى الطاوس، ثم العطرة. وهي التي تقف على الذبيحة، وتقرر كيفية تقسيمها وتوزيعها.

هن: لالا ختاتة. وهي أمي، وننايدها نحن أبناؤها بيمّة، اسمها فطيمة، وهي بدورها بارعة الجمال، ومثل الجميع، يملأ الوشم ذراعيها ويديها ووجهها ولم تنقطع عن تناول النفة إلا بعد الخمسين... عندما

حجت ما يزيد عن ست حجات، وحفظت ربع يس، وصارت تقرأ وتمتب.

لا تفتأ تكرر أنها بنت مُحند أوعبذ الله، وما أدراك ما مُحند أوعبذ الله. كبير أثرياء المنطقة، له طاحونة، من عجبها، أنها تعمل بالماء، وتطحن جميع أنواع الحبوب، وليس لها ضجيج، ويعمل فيها فرنسي. كان فحلا، شهما، محل هيبة من الجميع.

مات مقتولا، وترك أموالا كثيرة لعب فيها ابنه الوحيد، خالي عمر الذي كان في منتهى الجمال، وجهه أحمر مستدير، كل ما فيه متناغم ومستقيم، هادئ. ربما كان مصابا بالقمار، ولكن ما نعرفه جميعا أنه كان فنانا يشترك مع مجموعة من أصدقائه في متابعة الأعراس أينما تكون، ويؤدون "الترحيب"، وهو تقابل مجموعتين من الرجال، تتبادل مفردات ترحيبة ما، كأن تقول مجموعة:

يُومامْ (أخوك) عمار هَوَايْبويَا، فترد المجموعة الثانية: سَواقْ لَجْمال هَا الصحراء، فترد الأولى: دقلة نور هَوَا الحرة.

كل ذلك مصحوبا، بالضرب القوي بإحدى القدمين على الأرض.. حتى إنه يقال إن خالي عمر، يشتري حذاء في المساء، فيرميه ممزقا في الصباح.

كان أبي يعيرني عندما يلحظ عليَّ وضعيات خاصة، كتعرية رأسي مثلا أو شرائي لنظارة، بأنني خوّلت.

لا أعرف سبب قتل جدي من أمي، وإن كنت أخمن أنه من أجل امرأة ما جميلة ، عشقها فوهبها روحه.. ولربما قُتل في ثأر ما، فشوي رأسه، في موقد ما عند النمامشة.. ولم يجد من يثأر له هو. زوجته نانّة برنية، تزوجت في دوارنا من الشيخ مخلوف، وقد كان شيخا حقيقيا، معمدا من السلطات الفرنسية، وهو من الجد الثالث، فرحات، لجدي، فيسمّون بالفراحتة، بينما نسمى نحن بأولاد علي. أول دار بنيت، في دوارنا كانت داره، وقد اصطحبت معها ابنتيها فطيمة وفاطمة، وضمتهما إلى الأسرة الكبير، فولدت مع مخلوف خالي الباهي، وخالتي عطوطة.

تزوجت فاطمة من عمي الدراجي، وتزوجت فطيمة من أبي، ولربما اصطحبت معها أيضا كمية من الذهب والفضة؟ أو لربما كانت ثروة جدي الحاج، من دين عليه، لجدي الآخر.

وكانت أمي تشكل بحق، المعارضة الصامدة في وجه نانّة خشيمة وقريباتها، وهي دائمة الشكوى منهن، حتى وهنّ بعيدات، عندما رحلنا وتركنا المكان.

كانت حازمة، فتجربة فاطمة، وطلاقها من عمي الدراجي ووضعية بعزيز، ثم طردها وبقاؤها ستة أشهر بعيدة، وأبي يرفض الطلاق وإعادة الزواج، كل ذلك، لا يغيب عن بالها، وفي حين تتفادى كل محاولات المس باستقرارها، تعمل بهذا الشكل أو ذاك على الانتقام لأختها الوحيدة ولنفسها، وعلى نسف مكانة نانة خشيمة وقريباتها.

انفصلت أمي بمطبخها عن بيت *العيلة*.. أغلقوا الباب الذي كان يقابل بيت نانّة خشيمة في الحوش الكبير، وفتحوه من الناحية المواجهة، بعد أن تركوا نافذة صغيرة، يمكن التواصل من خلالها، مع العائلة، أو مراقبة ما يجري فيها. وأنشأوا باحة صغيرة هي الحوش الذي ولدت فيه، ووجدت أمامي أختي الزهرة، وأخي عبد الحميد الذي يكبرني بأربع سنوات.. بنوا مطبخا، رغم أن مدخنته تمتص الدخان، فإن أمي كانت تستعمل "البابور" الذي يعمل بالكاز. وهذه مرحلة متقدمة، في استعمال التيكنولوجيا، للتغلب على مصاعب الحياة.. وبين عيني حتى الآن أنه ذات صباح، وكان الثلج يملأ الباحة، وبينما تناول أبي قهوته، وغادر، فاض البابور علينا وكاد يلهب النار في كل شيء، لولا أن أمي سارعت إلى الثلج، فغطت به اللهب، وقد كانت شجاعة، تلد بدون قابلة، تقطع سرة الوليد، وتكتحل، وتنهض لحلب البقرة، وإفطارنا.

يمّة كانت تصعّد معركتها مع نانّة خشيمة ومع خالتي عوقة، خاصة عندما تكون هناك ذبيحة، ويٌغفَل مطبخنا، أو يبخس، فلا تأتينا قسمتنا، أو تأتينا متأخرة، وعلى غير ما كنا نتوقع. تردها أمي، وتشن حملتها المضادة، وتملأ صدورنا بالغيظ.

عوقة ونانّة خشيمة هما العدوتان الأساسيتان.

هما من تسببتا في تطليق لالاّ فاطمة، وهما اللتان يسعيان لتطليق أمي بدورها، ولكن لأمي علاقة طيبة مع الشانقلوط، ومع الطاوس ومع العطرة، وخاصة مع نوة حنة.. وقد استطاعت أن تفتح بعض الثغرات في الجبهة، فسعت لتزويج عمي حمو من ابنة أخيها من الأم خالي الباهي "أمجوج"، بمعنى الأطرش وأعتقد أنه كان فقط ثقيل السمع، ربيعة وهي رائعة الجمال، طويلة القامة مكتملة القد، وجهها مستدير تزينه وشمات زرقاء على جلد أبيض مثل اللبن، مرحة حيوية، تحب الجميع. لم تطل، الزيجة فسرعان ما عادت إلى دار خالي الباهي، ووضعت رسوما، بالنيلة وبالحناء، في غرفتها، تشبه الأشكال التي يمثلها الوشم، في الأيدي أو الأذقان والجبهات بين العينين خاصة، وهي كائنات خطوطية متقاطعة، ودوائر تأخذ مواقع وأحجاما مختلفة، لها تسمياتها الخاصة، فهذا خُلاّل، وهذه ذبانة، وهذه امرأة، وهذه عقرب، وهذا بول الثور، وذاك رجل، إلى غير ذلك.

هن: نوة حنة، تسكن خارج الحوش الكبير، وبالأصح جنبه، مواجهة للشرق، عند منتهى الحائط الذي يقسم البئر، وقبل حظيرة الأغنام، وهي زوجة عمي مرزوق، وعمي مرزوق هذا هو الأخ الوحيد لجدي، لحقت به، لكن تفوتني ملامحه فلا أذكر شيئا منها.

مات عمي مرزوق، وترك ولدا واحدا، ونوة حنة التي اكتسبت صفة الحنان، فقط، لأنها، تحن على الجميع، خاصة على وحيدها.

نوة حنة، تحمل " أعرعور" .. ذروة على ظهرها ، يعلم الله ما تسبب فيها وهل كانت قبل أن يتزوجها عمي مرزوق أم نتيجة لمرض ما، أودى بها فيما بعد، وعما إذا لم تكن موت عمي مرزوق بسبب هذا العرعور.

تمشي منحنية، وعلى عجلة من أمرها باستمرار، وعلى ما أفهم، أنها كانت تعيش الفقر المدقع، ولا تذوق لحما إلا حين يذبح جدي، ولربما كان لها مثل باقي نساء الحوش، بعض دجاجات، تظل تعدها.

تظل نوة حنة، تبحث عن ولدها، ولا أعرف له اسما غير اسم بحوت، ولا أدري ما تعنيه هاته الكلمة.

تخاف عليه خوفا يتعدى حد الهوس، ولا غرابة في ذلك، فهو كل ما تكسب في هذه الحياة. ويستحق أكثر من ذلك، الحب والود والرعاية.

كان جدي الحاج، وكان أعمامي كلهم، يعاملون بحوت، معاملة الغريب، ولا يتورع أحدهم عن ضربه، إن تخلف في أداء واجب ما نحوه، وجميع الواجبات، من استخراج الماء من البئر، إلى ربط العجول، إلى تفقد الرعاة، وإعانتهم على العودة بالأغنام والأبقار، إلى النزول إلى الوادي بالخيول لكي ترتوي، إلى الضحك، فقد كان بحوت، يضحك، حتى وهو يبكي.. جميع الواجبات، ملقاة على كاهله، كلف بذلك أم لم يكلف.

وكانت نوة حنة تشاركه البكاء بالصوت العالي، تساندها أمي. وأعتقد أن أبي كان يعطف على نوة حنة كثيرا، وحسب ما بلغني، فقد كان عمه مرزوق صديقا حميما له، ولربما بينهما بعض أسرار.

لا نعرف الكثير عن موت عمي مرزوق، وحينها لم نكن نتساءل، لماذا يموت الناس، إنما يقال إن عمي مرزوق كان يتعاطى القمار، وينفق فيه كل ما يقع بين يديه أو يصل إليهما.

ورغم أن عمي مرزوق يشترك في الإرث مع جدي، إلا أن نصيبه من الأرض، كان قطعة واحدة معهودة ويعرفها الجميع. وهي مصدر رزق نوة حنة وبحوت.

لا شك أن جدي الحاج مُحند أونيس "دبر رأسه" فيما بعد، وامتلك ما امتلك من الأراضي الواسعة بجهده الخاص وبمساعيه الدؤوبة.

مسكين جدي الحاج.

لم يبق له قريب أو قريبة، بعد فقد أخيه، ما عدا ما ملأ به الدار من عرائس وأولاد وبنات وأحفاد.

كأنما خرج من أحدى تلكم الروابي العارية، ترجّل عن فرسه، وأنخى جماله، وأقام عالما خاصا به وحده، فرض نفسه، على المنطقة، فكان زعيمها، يرجع إليه في الكبيرة والصغيرة..

إنه _ كما أحس الآن_ أشبه ما يكون بجبل سيدي ارغيس، ولو أننا لا نعرف من أين أتى، أين أرغى وغاص، ليخرج في هذا الموقع الاستراتيجي الهام.

أين ذهب أولاد جدي السادس، علي، وأين ذهب أولاد بلقاسم الجد الخامس، ثم أين أولاد علي بعد فرحات، وهل لم تكن لجدي أونيس سوى مهمة واحدة، هي إنجابك، ثم السفر إلى مكة، راجلا ليموت، هنالك أو في الطريق.

الحق أننا لم نسأله، ولو أن عمي الدراجي، أجابني مرة، قائلا إننا أتينا من الصحراء، ومرة قال إننا أتينا من الساقية الحمراء ووادي الذهب. وكثير من الجزائريين، يقولون إنهم أتوا من الساقية الحمراء، ويبدو أن هذا صحيح، إذا عرفنا، حسبما أورد المرحم علي دبوز في كتابه تاريخ االمغرب الكبير، من أن فلول جيش عربي كبير، انهزم في مواجهته، في وادي مينة، مع جيش الدولة الرستمية، هربت إلى الساقية الحمراء، على أمل ان تقطع البحر وتلتحق بالأندلس.. شرعوا في العودة إلى الشمال تسللا، لتعليم القرآن والتزوج، وهؤلاء هم بصفة خاصة المرابطون، والشرفاء في بلاد القبائل.

ولربما يكون بعضنا أدارسة من سلالة، سيدي بوزيد بن علي (المولود في اول القرن الخامس من الهجرة، الذي عمر كثيرا) المنتشرة في كامل أنحاء المغرب العربي، فعندنا عرش البوازيد، وهم أولاد أحمد بن بوزيد، أحد الأبناء الأربعة لبوزيد وهم علي وعبد الله ومحمد وأحمد، وكثيرا ما سمعت الناس في دوارنا يرددون هذا القسم: أوراس سيدي أحمد بن بوزيد، ويتفكه البعض عنا قائلين إن أحدنا وجد جذرا عذبا فراح يأكله ويردد معجبا ومتعجبا: ماتّا هوشيذ آسيدي احمد بن بوزيد... (ما أكثر عطاياك يا سيدي أحمد بن بوزيد)، وإذا ما شك أحدهم في صدق كلام صاحبه قال له ما معناه: قل يدقني (يضربني) سيدي أحمد بن بوزيد

لم أكن أعرف أيامها، أن جدي يعيش الوحدة، وأن هذه اللعنة، ستلحقني، وسأظل طوال حياتي أعانيها، وأهرب منها بمختلف الأشكال، وهي الآن تشدد عليّ الخناق، فتعصرني إلى كلمة، وإلى نغمة، وإلى صورة، وإلى دمعة عصية.. وأنه جدي، حين يرفع عقيرته: يا القبة الخضراء من لبحور تبان.. جاوك لخوان، إنما يتشوق لوالده الذي مات في طريقه إليها، ولربما إلى أخيه مرزوق، ولربما إلى أخوات ولدن ومتن، أو ربما لم يولدن أصلا، وهذا مستبعد جدا، ولربما إلى أمه التي لم يَردنا أي حديث عنها.. وهو حين ينظر إلينا، البنين والبنات نمسك أيدي بعضنا، ونترنح أمامه يمينا شمالا، في خطوات متناسقة، لا أدري من علمنا إياها، خديجة بنت عمي الدراجي الكبرى، ثم أختها معوشة، وهي من أكثر المتعاطفات معي والمتوددات إليّ، ربما لأننا نتقارب في السن، ثم قنة الصغرى ثم بنات الشانقلوط حدة وزازة ونصيرة المتحفظات مثل أمهن...

يرانا، عالمه اللامتناهي، الممتد من مكة، إلى هنا، ومن سيدي ارغيس إلى سوريا، ومن تيقيلالين إلى وادي الذهب بالساقية الحمراء ومن نبع نهرنا، إلى ما لا نهاية.

عالمه الذي لا يملأه عرس مهما كان حجمه. ومهما بذل فيه، لفك الوحدة والعزلة...

تقام الخيام، ويتوجه الدعاة، إلى الشرق والغرب، إلى كل الأسواق، مداوروش، صدراته، عين البيضاء، خنشلة، مسكيانة، باغاي، أم البواغي، الرميلة، قايس، إلى جميع مضان الحراكتة، ومواليهم، أمثال أولاد سي يحي بن عيسى، أولاد سي موسى، أولاد أسباع، أولاد بوعافية.

قبل العرس بأسبوع، تقام "السهريات".. يتجمع شباب الدوار، والفرقة الفنية، بعد الغروب، ويشرعون، في إقامة الحفل.. يقصب القصابة، ثم يغني المغني، ويصحب كل ذلك طلقات البارود، ثم يلحق أهل العرس بالسهرية، فتخرج الراقصات من وراء الدراقة، يدككن الأرض بأرجلهن، ويهززن بطونهن، على إيقاعات الزندالي القوية، متحديات لذكورة كل رجل، وتصدح الزغاريد.

أحيانا تكون الراقصة سافرة الوجه، وأحيانا بالعجار، وهو خمار شفاف رهيف.

يتقدم موعد السهريات، يوما بعد يوم، ويتكاثر الرواد، ويقدم الضيوف بعوائلهن من جهات مختلفة.

وعندما يبقى ثلاثة أيام يبدأ العرس الحقيقي. وهو يتمثل في الذبح والنحر، والتكفل التام بالضيوف، ثم في إقامة المحفل والفرسان استعدادا لاستقبال العروس.

تخرج النساء بألبستهن المتنوعة الألوان، بعضهن يضعن عبروقا على أوجههن، وهو خمار شفاف مطرز، يخفي ملامح الوجه، وبعضهن سافرات، خاصة العجائز، والعذارى.

يصطف الرجال قبالة النساء، على بعد يسمح للفرسان، بأن "يطرّحوا" ويستظهروا براعاتهم، وقدرات أفراسهم، ثم يتقدم المغني بقصابيه، فيصلي على النبيء، ويحيّي الولي الرابض في مرتفعات العثمانية، قرب قسنطينة، سيدي الزواوي، وهو مانح السر، لمن يريد أن يحترف الطرب. حيث يبيت عنده ويؤدي تهاليل وأورادا، وألحانا، وفي الصباح يتلقى، عطية الشيخ. ثم يرتفع نغم القصبات، وهي في العادة ليست سوى قصبتين، يؤدي لحن "مرواح الخيل"، وهو أشد ألحان الشاوية رقة، وحزنا، وأسى، وتعبيرية. إنه نداء نجدة، موجه للمجهول، أو دعوة للانسحاب من معركة، يترجمه الفرس والفارس، بالرقص والركض ومئات الزغاريد، تتتالى، من كل واحدة تقف في المحفل الطويل.

سردت أمي أكثر من مرة، كلمات اللحن، ولكن لاأذكر منها شيئا، للأسف الشديد، وقد حاولت ترجمته في قصة رقصات الأسى.

في حين يؤدي الفارس عندنا، مشواره منفردا أو مع مجوعة صغيرة جدا، يقوم في الغرب الجنوبي (تيارت معسكر) عدد كبير من الفرسان يسمون "القوم" ينتسبون لعرش معين، يتقدمهم علم ذلك

العرش، فيلقي أحدهم قصيدا يمجد العرش والقبيلة، ويذكر مفاخرها وأمجادها، ثم يبتعدون عن المحفل، ينتظمون فينطلقون، ويظلون يفاخرون بأن صفهم مستقيم ليس فيه تفاوت، حتى أنهم يقولون: لا تقطعه شفرة.

وما استخلصته من جولاتي، أن سكان الهضاب، من سفح الأوراس غربا، إلى الجلفة وآفلوا والشلالة، والسوقر وتيارت، ثم سعيدة ومعسكر، وإن اختلفت لغاتهم ولهجاتهم، فإنهم شعب واحد من حيث العادات والتقاليد والأكل واللباس، والملامح، وردرود الأفعال، ربما انصهر منذ عهد الدولة الرستمية، وغيرها من الدول التي قامت قبلها أو بعدها، وربما اندمج بالتزاوج كما يقول ابن خلدون.

لا أذكر أنني التحقت بعيسى جرموني، لكنني أذكر جيدا المغني الحنفي العايب، وهو من منطقتنا، تروى عنه نكات كثيرة، والربيعي اللموشي، الذي صورته في أقصوصة *رقصات الأسى*. كما أذكر الحديث عن الحزن الذي لحق الحراكتة، عندما بلغهم أن عيسى جرموني، ***باع*** ما أعطاه سيدي الزواوي، وذلك بتسجيل أغانيه في اسطوانات بفرنسا.

(لم أستطع أن أواصل، فقد غلبني البكاء عند تحرير هذه الأسطر. جاشت عواطفي لست أدري لماذا.

أخشى أن تكون روح جدي الحاج المتحدية للوحدة والعزلة، تتلبسني، أو أن تكون إحدى شرارات فزع سيدي ارغيس، قبل أن يرغي ويغوص، قد طاشتني. أو لربما أكون قد مسست، بالخلية الماهية، التي أتكون منها.).

رأيت أبي يؤدي أكثر من مشوار، يرتدي برنسا أزرق فاتحا، فوق برنس أبيض وجبة بيضاء، ويعتصب رزة صفراء عليها خيوط سوداء تخالفت من فوق إلى أسفل في ربطها، بحيث شكلت قاطعا ومقطوعا، ويحتزم فوق الجبة، محزمة جلدية حمراء فاتح لونها، ملأى بالخراطيش نازلة من فوق كتفيه بقاطع ومقطوع من نفس الجلد ومن نفس اللون، يحمل كل منهما نصيبا من الخراطيش، وينتعل "مسْتا" من الجلد الفيلالي اللين، الأحمر الضارب إلى القرمزية، يصل حتى ركبتيه.

حالة حرب حقيقية، الله أعلم متى حدثت. هل في القرن الأول أم في القرن الخامس أم السادس، أم حدثت القرن الماضي عند دخول الفرنسيين عند تخوم قسنطينة، حيث واجه الحراكتة الجيش الغازي بكل أنفة. إنه الحلم في النهار، في اليقظة، بما لم يبق في الذاكرة، إلا صورة خارجية.

لعبت فرس أبي لحظات، كما لو أنها إحدى صبايا العرس، استفزتها النغمات، فغلت العواطف في صدرها وجاشت، فعرت على

وجهها، وارتمت في أحداق العيون. الفرس ملك لنا، وقد حدثت حولها، لا أدري، قبل أو بعد هذا العرس، ظاهرة غريبة، إذ أنها ولدت كائنا عجيبا، لا أدري بالضبط ما هو، ظل الناس، على مدى أيام يتوافدون، ليتعجبوا منه، ونحن نفسر هذه الظواهر على أنها إشارات، سماوية، لحدوث أمر ما، خارق للعادة، ومريع، على أغلب الظنون، ولربما كانت تلكم إشارة إلى مصيبة التيفيس التي أكلت ثلاثة أرباع دوارنا، أو إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية، التي عانينا منها الأمرين أيضا.

عندما أنهى أبي مشاويره، وأعتقد أنها لم تكن سوى إرضاء للحاج، وللعشيرة، وأنه لم يكن متحمسا لها، كثيرا، فالصورة التي رسخت في ذهني إلى اليوم، أنه بشكل ما، فيلسوف، ينشغل بالأفكار أكثر مما ينشغل بالحركات، مع أنه كما علمت فيما بعد من أشهر فرسان الحراكتة، ومن الصيادين القلائل، يمتلك بندقية وكلب صيد .

جاء دور عمي حمو، فارس أولاد الوطار، بدون منازع. أطال الله عمره،

راح الفارس الشاب الرائع الجمال، محط أنظار كل الصبايا يلاعب الفرس، ويراكضها، منتشيا، منهمكا في العملية، منسجما مع الإيقاع، لا يسمع سوع نغمات القصبة، ودقات البندير ونحنحة الفرس.

أحزنني، أنني كنت أصغر من أؤدي مشواري بأكثر من بندقية وسيف.. لكن فيما بعد، وعندما كانت توكل لي مهمة صيانة فرسنا، سواء ونحن بمداوروش، أو بدوار الحميمين قبل ذلك، أو بالداموس، كنت، أراقص الفرس، وهي أكثر حساسية من أي كائن للأنغام الموسيقية، حتى وإن كانت مقيدة بالسلاسل، ما أن تسمع صوت الزرنة أو القصبة، حتى تنطلق في الرقص.. كما كنت آتي بها مشاوير جميلة، وأذكر أنني ذات يوم وبينما كنا، أنا، ولربما أخي حميد، والفرس، عند العين في الحميمين، إذ قفز ذئب أمامها، فتخلت عن الماء وانطلقت، تركض خلف الذئب، الذي تفازع كل فرسان الدوار يبتغون القضاء عليه.

أبهج الأوقات، وأحلاها، في دوارنا، هي أيام العرس، وكذلك أيام الحصاد والدراس، حيث يكثر الرائح والغادي، وتتنوع الحركة، ويستبسل الناس، في تحدي آلة الدراس، التي تتطلب باستمرار المزيد، ثم المزيد، وكلما لقموها، استزادت، واستزاد الرجال طلب الماء.

يكثر اللحم، ويكثر الكسكس، وحتى المرق، أو اللحم المشوي، لـ"لماكسيان" الساهر على عدم توقف الآلات، وعلى أدائها الحسن والسليم، مع تجنب ما أمكن مرقة البطاطس، فهي تعطش، خاصة في الصيف وكذلك، في رمضان.

يكثر الدخان في المطبخ، ويكون "*الوقيد*" متوفرا، فما جمع من روث الأغنام والأبقار، والخيل في الربيع من طرف العجائز والبنات والأطفال، يكون قد جف، ويصير قابلا للالتهاب السريع. ثم إن هذا التبن، المتساقط، وهو ينفصل عن حبات القمح الطيبة، ***وقيد*** أساسي.

حتى وإن لم يكن هناك، حصاد أو دراس، ففي فصل الصيف هناك دائما حركة القدوم والذهاب...

يظهر من بعيد، ارْجمْ أوالزينْ، على دراجته العجيبة، وهي ثاني آلة ميكانيكية بعد سيارة أبي، يسيرها الإنسان بدون ثيران أو أحصنة، تدخل عين الصنب، ودوار أولاد الوطار تحديدا.

يبعد بيت رجم أوالزين، عنا، حوالي الكلمتر، ويقع في منتصف الطريق بيننا وبين دار خالي الباهي البيضاء ذات القرميد الأحمر، وتقابله، بعض أكواخ فقراء أولاد الوطار، وهم خليط من سود وخلاسيين، والدراجي أوالشريف وزوجته البكماء "تاعقونت" وهما يعيشان في بيتنا، طوال الوقت، يقومان بمساعدة الجميع، خاصة في عملية السقاية.

كل ما أعرفه عن الدراجي أوالشريف أنه من أقاربنا، من الفراحتية، وأنه أدى الخدمة العسكرية مع أبي وخالي مُحند أوالباهي.

عندما حان توزيع الفريق الذي كانوا فيه، بعد التدريب العسكري، رفض الانفصال عن أقاربه. حمل أغراضه على كتفه، وتبع الوحدة التي حُول إليها أبي وخالي مُحند أوالباهي: " انروح مع بني عمي"، وأكيد أنه تلقى صفعة.

لا يتركنا الضحك، أن نسأل عن بقية الحكاية. يتحدث قليلا من الفرنسية، ويحب التبغ، ويأكل كل سنتيم يقع بين يديه، حلواء، أو تمرا أو زلابية، هو والعقونة زوجته. ويقول الموت واحد، وما يذوقه الغني يذوقه الفقير.

للدراجي أو الشريف، أنف كبير يحتل ثلاثة أرباع وجهه، لكن مع ذلك ضحكته الجمّة، تغطي عيب الأنف، وتجعله محببا للنفس.

ليس للعقونة، ولا للدراجي أو الشريف أبناء، وكثيرا ما انفصلا عن بعضهما، وأعادهما جدي أو أحد أعمامي إلى بعضهما.

قبالة هذه الأكواخ، مقبرة صغيرة، في سفح **الكاف**، يراودها الثعالب في الليل. وهي مقبرة الأطفال الصغار، حيث تنام أختي مدينة، وأخي سعدان، وقد حرثت فيما بعد وطمست.

وعلى قمة الكاف، وفي جنبه، حفر الأمريكان فيما بعد، بيتا يراقبون منه كل حركة، تحدث في الغرب، وجزء كبير من الشمال،

من رأس عين الصنب، إلى وادي الشارف، مرورا بقمم تيقيلالين الجرداء.

يظل عمي ارجم العزيز، يحتضن آلته، وهو يجلس إلى جدي أو إلى عمي الدراجي، وأظل أنا وغْريو، نلف وندور حوله، ونحاول بمختلف أشكال التوسل والتزلف، أن يعيرها لنا، ولو قليلا.. دعنا نمسكها، ها هنا أمامك. نلمسها بعض الشيء فقط، ركبنا أنت وانزلنا يا عمي ارجم أوالزين، أمرّر يدي فط، على هذا المصباح.. أشعله، يا عمي ارجم أوالزين. أحقا يشتغل في الليل فتستطيع أن ترى أمامك كل شيء.. هل ترى الجرابيع، وهي تقفز على أرجلها الخلفية؟

لا يرد علينا إلا بالابتسام، ونظل نطمع في لين قلبه، غير أنه يمعن في إغاظتنا، بإبعاد أيدينا، ونهرنا، وخاصة، إبداء المزيد من الحنو على آلته... وواضح جدا أنه يتلذذ بإغاظتنا.

ولكن كل ذلك لن يمنع أن يكون عمي ارجم أوالزين من حين لآخر كريما، فيستجيب لنا ويضغط على زر جنب علبة بيضاء مستديرة، فيرن الجرس، رنات خاطفة، لا مثيل لها في هذه الدنيا، ولا يمكن وصفها، يزيل عنا كل غم باقي النهار، لكي نستسلم في الليل لأحلام يقظة تقودنا فيها الدراجة العزيزة، إلى أبعد نقطة، من هنا، خلف تارقالت، وخلف تيقيلالين، وخلف سيدي ارغيس.

في فصل الصيف أيضا، تنشط حركة جميلة، عند ضفتي الوادي، فمن هناك، من فوق من "الكاف"، وهو منتهى انبساط الأرض الممتد على مدى البصر، من الناحية الشرقية، والذي نسميه السطوح، والبداية الحادة لانخفاض رهيب حتى الوادي. ليعيد ارتفاعه مباشرة، قاصدا تيقيلالين.. أو من ظهر الجامع، كذلك، حيث لا يفصل بين الحائط والمنحدر سوى بضعة أمتار.

من هذا العلو الشاهق، نطلق العنان لإقدامنا، فنظل نقع وننهض، ونتدحرج، إلى أن نجد أنفسنا في مواقع من الوادي نعرفها جيدا.

تلحق بنا النساء، في شكل قافلة، محملة حميرها وبغالها، بالصوف، أو بالقمح، يقودها أحد أبناء عمي الكبار. ينتشرن على إحدى الضفتين، أو على الضفتين معا، بقعا حمراء وزرقاء وخضراء، ووردية، وبيضاء، وصفراء، وينهمكن في غسل الصوف، أو "تسويم" القمح، ونشره على حصائر، ثم إعادته بعد أن يجف، إلى العدائل، أو الغرارات، وهي أكياس صوفية ووبرية، من نسجهن هن، ليجد طريقه إلى المطحنة، إعدادا لمؤونة الشتاء، أو لوليمة كبرى أو لهما معا.

نروح نحن الأولاد، نستحم في البرك الصغيرة ، متجنبين البركة الكبرى، " القلتة " التي لا يستحم فيها إلا مجيد ابن عمي، وأخي حميد، بالاستعانة بشكوة، أو بقربة، منفوخة، القلتة، تروج حولها،

حكايات وأخبار وأساطير كثيرة، فهي مسكونة بروح أحد أقاربنا، ابتلعته، منذ دهور، وإلى الآن لم يظهر له أي أثر. وأن هذه القلتة، تنتهي إلى قلتة فرعون، في البحر، وهي تتبادل معها الحياة والماء، ولا يرتويان أبدا.

على كامل ضفة الوادي التابعة لنا، حاول جدي، وكل أعمامي، حفر بئر، واستخراج ماء تقام به فلاحة سقوية، بالشراكة مع أحد الجنانين، الذين يحسنون زرع اللفت والجزر والبصل والثوم، والبطاطس، والبطيخ، الأصفر، الملقب عندنا بالمرحوم، وهو أحب فاكهة إلينا، جميعا.

لكن، ولسبب ما، كلما اقترب الحفارون من الماء، غار الماء، وولى إلى الوادي، الذي لم تكن هناك أية وسيلة للاستفادة من مائه الذي يمر أمام أنوفنا، فرحا زاهيا، نشيطا، في طريقه، إلى البحر في عنابة.

بدءا من إحدى الضفتين، يبدأ الصعود، إلى دار جدي شرقا وقمم تيقيلالين غربا.

المنحدر قوي كبير، والأخدود عميق، وعريض، وأيامها لم تكن المحركات معروفة، كما أن الطريقة المصرية أو الصحراوية، في تحويل الماء إلى ألأعلى، أو في الفقارات، معروفة عندنا أو مخزنة

في ذاكرتنا، ولربما لم نعرفها إطلاقا، ولم تتفتق عنها عبقرياتنا، فتخترعها.

يمكن القول، إن دوارنا، كان في مرحلة انتقالية، بين مراحل الرعي وبين الفلاحة الموسمية، والزراعة السقوية، وقد باشر فعلا، بعد زراعة الحبوب، زراعة البقول، فكانت حقول الفول، والحمص، والذرى، لكن عن طريق الزراعة البعلية.

أما الشجر، فتلك خطوة أخرى لا نستطيعها. لا نعرف المسافة بين الشجرة والأخرى، ولا نعرف العمق الذي نغرس فيه العروق، ولا نعير أية أهمية للسمادات.

للصيف أيضا، انشغالات جانبية. إذ نظل مع جدي نرصد الشمال، ننتظرهم، أولئك الذين يبرزون من بعيد في شكل كتلة بيضاء، لها أطراف منتفخة، تتضح كلما تقدمت وارتفع صوت الزرنة والطبل الذي يصطحبها. يفرح بهم جدي، أكثر من الجميع. ونظل نتأملهم مندهشين.

مجموعة شباب، يرتدون جببا بيضا فوقها برانس من صوف بيضاء كذلك، ويعصمون رؤوسهم بشاشات بيضاء أيضا، يشدون وسطهم بأحزمة، فيبدون طوالا، مستقيمي الأبدان، رشيقي الحركة، أشبه ما يكونون بملائكة لطيفة. يحمل بعضهم على ظهورهم رزما

كبيـرة بيضــاء، مشـحونة بالصــوف التــي جمعوهــا، ويتقـدمهم حينــا ويتوسطهم حينا آخر، عازف الزرنة. وضارب الطبل.

شباب بني عافر. ونطلق عليهم فقط تسمية بني عافر، وهم بيض صـهب أماليد، يعتري وجوههم زغب أصـفر، أقرب مـا يكونـون إلـى البنـات الروميات منهم إلى الرجـال... يأتون من بعيد، من الشمال القسنطيني، الذي نطلق عليه جملة وتفصيلا، تسمية جيجل.. يبيعون أشـياء خفيفـة مثـل الإبـر، والمسـواك، والعطـر، والمناديـل، وبعـض الحاجيات التزينية للنساء، أو النيلة، أو المزامير التي يتهافت عليها الرعـاة.. وأهم مـا يبيعونـه، هو هذه الرقصات التي يؤدونها جماعة وفرادى. والتي يستنكف رجالنا أن يأتوا مثلها، لكنهم يحبونها، فالرجل عندنا يرقص فوق الفرس، وعلى كتفه بندقية أو أكثر.

يقضون بيننا أياما عديدة، ويبدو أنهم يتسوقون إلى صدراته لبيع ما تجمع لديهم، والتسلع بما ينقصهم.

وعندما يغادروننا نهائيا وتنقطع أنغام الزرنـة، نشعر بفراغ كبير، وباقتراب موعد الخريف، ونظل نتطلع، إلى الطريق الذي يعبرنا، مرة إلـى الشـمال، حتـى يفترع تجـاه عين البيضـاء شـرقا وصـدراتة غربـا، ومرة إلى الجنوب، وإن كان معظم الظيوف الذين نحبهم يأتون من الطريق الشمالي.. يمرون على دار خالي الباهي، وعلى بيت ارجم أوالزين، ويقصدوننا.

يستقبلهم جدي الحاج، استقبالا حارا، ويتجمع حولهم الرجال والأطفال، ويصطف الكلاب بعيدا، في انتظار ما تؤمر به، أما النساء فيطللن من خلف الحجب، وهن على علم ودراية بكل ما يحدث خارج الحوش، إن بالسماع وإن بالرؤية.

تدوم حفلة الهواء الطلق الراقصة هذه، ساعات وساعات، ثم تواصل الفرقة طريقها، بعد أن تتخلص من بعض ما يثقلها، من صوف وحبوب، بتركه على أمل العودة والمبيت، وما يتبعه، عندنا.

يقول التاريخ، إن كتامة *ترومنت*، فاندمجت مع الحضارة ونمط الحياة الروماني، على عكس زناتة التي ظلت، تضرب الرومان وتهرب إلى الصحارى، مستعملة الجمال التي يخنونها، ويربضون تحتها، حتى إذا ما قدم عليهم الرومان بأحصنتهم، يواجهونهم بما لديهم من السلاح، وبرائحة الجمال فتولي الخيول جافلة. أما الإدريسي فيقول كلاما غريبا عن كتامة، أفضل أن لا أتعرض إليه، وأن أكتفي بلفت النظر إلى رحلة الإدريسي هذه، ففيها كثير من المعلومات الغريبة، بعضها يقبله العقل، وبعضها يرفضه.

هؤلاء الشباب، هم أحفاد القبيلة التي تبنت المذهب الإسماعيلي، فأسست الدولة الفاطمية، وجعلت المنطقة تنتقل مباشرة، من المذهب الخارجي المعادي لأهل البيت، إلى المذهب الشيعي الموالي لهم. اصطحبت كتامة، جوهر الصقلي، في فتح مصر، وبنت مع المعز

لدين الله الفاطمي مدينة القاهرة، واتجهت إلى سوريا للقضاء على القرامطة، ويقال اليوم إن الدروز الحاليين، هم من بقايا كتامة.. والله أعلم على حد تعبير ابن خلدون.

الصيف عندنا، يتميز أيضا بالليل. ظهر القمر، أو لم يظهر، فإن النجوم تنحني على الأرض وتكثف نورها. فتختلط الأرض بالسماء، ويعم النور هنا وهناك. نبسط فوق الحصير، فراشا خفيفا في العراء بالحوش الكبير، وننبسط جنب بعضنا أولادا وبناتا.

يظل كل واحد منا صامتا، لا يشوش على جاره، إلى أن يغلبه النوم، ويستيقظ مع الفجر، ليجد أن البرد قد أخذ منه مأخذه، فلا شك أن النجوم، ابتعدت قليلا عائدة إلى أوكارها تلك التي تشبه أوكار العناكب، ثابتة مستقرة، مصونة.

من يستيقظ منا الأخير في الصباح، يجد نفسه وحده، محاطا بالمخدات والمساند، فقد هجر باقي الأطفال والبنات المكان متسربين، كل نحو أمه.

وعندما تكون القمرة، نروح إلى الحقل نتفرج على الجرابيع، وهي تخرج من أوكارها لتلعب، راكضة قافزة، مثيرة للغبار حولها، غير مبالية بقساوة الحياة.

هذه الجرابيع ننشغل بها في النهار، في المساء طبعا، حيث نتقفى آثار غيرانها، ونحفر عنها.

يرافقنا جدي في عملية الصيد هذه، وكما لوا أنه واحد منا نحن الأطفال والشباب، يعيرنا برنسه، لنسد به ما اكتشفناه من منافذ، ثم، يأخذ نصيبه الأول، فنشوي له جربوعه، ليتولاه بسكينته البيضاء الصغيرة. ولسان حالنا جميعا يقول: اللي ذاق لحم الجرابع يظل يرابع.

الجربوع، كائن أبيض مع قطع ضاربة للصفرة أو بنية، أقل بكثير من الأرنب، قدماه الخلفيتان، أطول من الأماميتين، وهو عندما يُعد بيته تحت الأرض، يموه، فيجعل لها عدة مخارج، وعدة تفرعات، بعضها حقيقي وبعضها وهمي، لا يدري المرء من أي منفذ يـ"نتق".

وإذا ما هرب منا، استعدنا المثل الشعبي الذي يقول "ما حفرنا عليك يا جربوع ما نتقت".

حين، نفرش حصيرا وحنبلا، في الحوش الكبير، أو جنب الجامع، ونستلقي. نواجه النجوم في صمت، ولا شك أن لكل واحد منا نجمته التي يلاعبها.. تقول له اغمض عينيك وافتحهما، يفعل ذلك فلا يجدها، يسألها أينك.. ترسل قهقهة رنانّة جميلة شبيهة برنين جرس دراجة ارجم أوالزين.

ها أنني هنا، افرك عينيك. أين تريدني أن أذهب. لن أجعلك ترتبط بنجمة أخرى.

أحقا أن اسمك فتيحة؟

من تريدني أن أكون أيها الخائن؟

هل أمك حية أم ميتة؟

أنا أم نفسي.

أين تذهبين في النهار؟

أهرب من الشمس، ومن القمر، وعندنا كهف نتخفى فيه.

ليتني أكون معكن. لأقول لك كلاما لا أريد أن يسمعه غيرنا.

قل، فلاأحد يتفرغ للاستماع إلينا.

دراجة ارجم أوالزين، أحب إلي من أي شيء آخر في هذه الحياة، وأتمنى أن أركبها، وحدى، أثير جرسها، وأنزل بها إلى الوادي أسرع من الريح ومن البرق.

أعدك بأن تكون لك واحدة عندما تكبر، أجمل وأجدّ من هذه، لا تقلق.

وغريو هل تكون له واحدة أيضا.

دعه يعرف ذلك من نجمته.

***

ماتت نوة حنة مغمورة بالحزن والأسى والحقد، تساندها في ذلك، أمي، وبقي بحوت الوسيم الجميل البشوش، يتدرج منفردا، راضيا بقدره، وبحاله، إلى أن تزوج عمتي لازي، وهي صغرى عماتي واسمها الحقيقي الفايزة، رفضته في الأول، فحملوها إليه عنوة، ثم اكتشفت فيما بعد أنه، مهما كان الأمر، ابن عمها الجميل. والحق أننا كنا كلنا ننظر إلى بعضنا البعض، على أننا إخوة، لا طعم لأحدنا في الآخر ولا طمع له فيه، خارج هذا الإطار، وكم تأسفت، لأنني لم أحبب واحدة من هاته البنات الطيبات. بنات عمي، خاصة معوشة. أو إحدى بنات عمي العيد، أو حمو فيما بعد، ولو أنني الآن، وعلى هذا البعد الزمني، الباهت، أشعر بأنني رغم محاولات الأمهات لفصلنا عن بعضنا، أشعر بأن كل بنات أعمامي يشكلن ملائكة، تطوف عليّ بأجنحتها الحريرية الوردية، طوال الوقت، يسألنني ما إذا كنت أذكر الرقصات الهادئة، أمام جدنا الحاج.. زيزي، وعما إذا كنت التقمت كل العلم، كما كن يفعلن .

نعم أذكر أيتها الطيبات يا ساكنات قمم تيقيلالين وقمم تارقالات، واللائي تطللن علي من أعلى جبل سيدي ارغيس. من ثاكبوست نغريو. واللاتي تحركن في كل وقت سواكن القلب.

فلا روح لي إلا روح ذلكم الزمن، وإنكن لروحه الحقيقية.

مات بحوت فيما بعد في حادث اختناق، بمخزن للحبوب، ولحق أباه وأمه، بعد أن خلف أولادا وبناتا رائعي الجمال.

وكما يقال عندنا، "اللي مات تطفرت فيه وحده" والحي يروح. فقد سهرت عمتي لازي كما ينبغي، عليهم، وأهلتهم إلى الحياة.

أبي وعمي الدراجي، وأخ لهم مات اسمه شعيب، ولا نعرف عنه شيئا آخر، ولالاّ روزا (وهي العمة الكبرى التي لا نراها إلا في المناسبات، قبل أن تسكن قريبا منا على بعد بضعة كلمترات، ونكن لها تقديرا كبيرا، حيث أنها متزوجة، من القايد الربيعي، وهو وسيم تبدو عليه الجدية، لا يتكلم إلا حكمة، أو أوامر، زارنا مرة بعد أن رحلنا من دار جدي، وبعد أن غادرنا، رحنا نزرع ما قلمه من أظافره، آملين أن ينبت لدينا واحد مثله). من أم ماتت هي نانّة حبارة، للأسف لم نلحق بها، ولا يُتحدث عنها كثيرا.. ولكن مع ذلك لم ألحظ أيامها، أي أثر لذلك في العلاقة بينهم وبين باقي أعمامي من نانّة خشيمة، إلا فيما ليس ظاهرا، مثل دس قطعة لحم كبيرة، في صحن عمي حمو أو عمي العيد أو عمي خليل، وهذا حق مشروع، فالدم، إذا لم يحن، "يكندر". ولو أننا عندما كبرنا، فهمنا أن أصل المشاكل في دار جدي تعود، إلى انقسام أبنائه بين أولاد حبارة وأولاد يمينة، ولربما سبب ذبح قطاتي من طرف عمي العيد يعود إلى ذلك.

الأمر يختلف، عندما يكون أحد أبناء نانة خشيمة متزوجا، فهنا لا بد أن تُظهر سيطرتها التامة على البيت، وإلا ما معنى أن يكون مفتاح صندوق المونة، معلقا في حزامها؟

فما أن عادت ربيعة إلى بيت والدها خالي الباهي آمجوج، وتزوج عمي حمو مرة ثانية، من سيدة هادئة، طيبة، من دار متواضعة، ليست بعيدة عنا كثيرا، حتى اشتعلت نار الحرب والفتنة.

هذه السيدة هي رقية، (امتلأ بيت جدي الحاج، بأسماء سيدات العرب آمنة. فطيمة. زينب الأولى وزينب الثانية. ثم ها هي رقية).

يدب الخلاف عادة، عن تجاوز العروس، لصلاحياتها، كواحدة من سكان البيت الكبير، ليس لها أي امتياز، بينما، تسعى العروس إلى قليل من الدلال، يساوي الفرحة التي استقبلت بها، والعرس الذي أقيم لها، والمكانة التي يحتلها الزوج.. مزيدا من فناجين القهوة. قليلا من كسرة الرخسيس لها وللعريس.. هذا الصباح، لا تستطيع، الإبكار لحلب البقرة، فقد أصبحت تعاني من وجع في الظهر... المحبة التي أبدتها بنات نانّة خشيمة، فطيمة وشوشة ولازي، في الأول، ها هي تتحول إلى نوع من الهيمنة والرقابة الصارمة، عن كل حركة للعريسين.

يمّة، من الجانب الآخر للبيت الكبير، تسبق المعركة، بالشكوى المفصلة من كل ما حدث ويحدث لها ومن لا تصدق ها هو بعزيز، دليل حي.

مسألة قسمة اللحم، تشم رائحة الشوى ولا أحد يرحم وحمها، منع الأولاد حميد، الزهرة، الطاهر، من دخول الحوش، حالما تكون هناك ذبيحة.

تنتبه العروس، إلى أن كل ما قالته وتقوله لالاّ ختّاتة، صحيح، وبدأ يحدث من جديد، معها.

وعندما قرر عمي حمو اتباع طريقة أبي في التواجد في هذا البيت، بالاستقلال، بالمطبخ، وبناء عالم خاص به، لا تؤثر فيه كثيرا نانّة خشيمة بمفتاحها، ابتنى له غرفة ومطبخا صغيرا، تتوسطهما باحة صغيرة، شرق البئر، ووجدت رقية في لالاّ ختّاتة، كل دعم ومساندة مادية.

أعطتها قصعة، والقصعة عندنا، أساس البيت، فمنها يخرج كل شيء: الكسرة، والكسكس، وما يرتبط عموما بالعجين، ومشتقاته.

لا أذكر جيدا التفاصيل، لكن واضح جدا، أن كرم يمّة، كان فوق المتوقع، فهذه مزاود، بأنواع مختلفة من الطحين، ولربما في واحد منها كمية معتبرة من الكسكس، وهذه كمية من "الخليع" أو من

"الكليلة"، وهذه شكوة يمكن الشروع بها في مخض الحليب، وتوفير ما يتوجب من اللبن ومن الزبدة، فهما أساس الغذاء.

نمت النواة التي أنشأها عمي حمو، وامتلأ المنزل ببنين وبنات، في غاية الجمال، وماتت رقية بينما ما يزال عمي حمو، حيث تركتْه، تسلط على سيدة عاقر، موني، أرملة شهيد، تتقاضى مبلغا ماليا محترما، يتزوجها حينا، ويطلقها حينا آخر، يطردها أولاده حين يكون غائبا، مثلما حصل وهو في الحج، فيعيدها، بكل حمية. ارتحل عمي إلى قرية قريبة، بعد أن خفت بصره، وثقل سمعه، وتشتت الأولاد كل حسب قدره. وحام الفراغ، على الدار الكبيرة، وخلا إلا من العناكب والفئران.

لا يتدخل جدي الحاج، ولا شك أنه في قرارة نفسه، كان سعيدا، فها هي الكتلة الصلبة التي أنشأها، تتعدد إلى كتل صغيرة، ستكبر بدورها، وستتشظى، لينشأ عرش أولاد مُحند أونيس المنبثق من عرش أولاد علي. غير أن مفتاح صندوق المؤونة، سرعان ما انتقل من نانّة خشيمة، إلى الطاوس، ومنها إلى العطرة، وهي الزوجة الأخيرة لعمي الدراجي، الذي توقف عنده تعدد الزوجات، حيث أنه لا أبي ولا أحد أعمامي، راودته، هذه الفكرة، أو اقترحت عليه.

الصيف في دوار عين الصنب، حلم لذيذ، ما أن نتطعمه، حتى ينقضي، فيتسلل الشتاء إلينا، متسترا ببرنس الخريف، الذي يتميز،

بعمليات الحرث والانهماك، في استقبال الشتاء، بجمع الوقيد، وجلب الحطب من مناطق يعرفها عمي العيد وبحوت وعمار، ومجيد، ولا شك أنها أبعد من تارقالت، وأبعد من تيقيلالين، وأنها تلامس الأطلس التلي، عند تخوم قالمة وسوق اهراس.

يترك العربان أيضا عند انسحابهم المتدرج فراغا.. يقتلعون عششهم، ويجمعون أغنامهم وجِمالهم، ويودعوننا، واعدين بالعودة السنة القادمة، ويؤمون الشرق الجنوبي.

والعربان، هم العرب الذين يأتون إلينا من الصحراء، ليرعوا أغنامهم، ويلتقطوا ما تخلف في الحصائد من سنابل. وهم الذين يوفرون لنا التمر بمختلف أنواعه، بعضه، معجون، يحفظ في بطانية من جلد (الغرس)، وبعضه يابس (القرباعي)، نطحنه، ونخلطه بطحين من قمح مقلي، لنصنع منه الزميطة أو الروينة بالحليب، أو الماء، ويسف كذلك، وهو أفضل زاد للمسافر، وبعضه جاف ليس أكثر، وهو معشوق الأطفال، فلا يشبعه المرء وإن أكل منه كميات كثيرة، نسميه كنتيشي، ويضحك علينا العربان، حين نعبر عن حبنا لهذا النوع، قائلين إنهم يعلفون به الدواب.

الشتاء جهنم. زمهرير. كابوس.

فإما الجليد، وإما المطر والغرقة، وإما الثلج، وفي جميع الحالات تنغلق الدنيا في أوجهنا، ويظل كبارنا يسهرون على عدم اختناق من يتدفأ بالفحم.

لا ينفع حذاء. لا يجدي قفاز، وكثيرا ما نسجت لنا، خاصة نحن أولاد بويا لعلى، أمنا جوارب وقفازات صوفية سميكة. لكن، نصُر، تصاب أصابع أيدينا، وأرجلنا بالصر، فتتورم، وتتهرأ، وعندما تدفأ في الليل، تشتعل التهابا، فنظل نحك، إلى أن يتوسع، تهرؤها.

الغرقة عندنا، خليط من روث الأغنام والأبقار، وزق مئات الدجاجات على اختلاف أعمارها وأجناسها، والتراب الأسود، الذي انفصل عن الأرض منذ زمان بعيد، وبقي مجرد غبار متسخ. ما أن يقدِّم المرء رجلا أو يؤخرها، حتى يغوص حذاؤه، ويشرع البلل، في التسرب إلى الأقدام المريضة، كما أنه ممكن جدا أن تكون صخرة ملساء تحت الغرقة، فتنزلق القدم، ويتبعها الجسم كله، وتبدأ عملية أخرى لم تكن في الحسبان. العودة إلى المنزل، انتزاع القشابية، تنظيفها، وتجفيفها، البحث عما قد يكون اتسخ بالغرقة أيضا، التدفؤ ما تيسر قرب المدخنة على نار التبن، أو الكانون على جمر الفحم.

أذكر جيدا، أن أختي الزهرة رحمها الله، حملتني على ظهرها، وقصدت باب الخروج لتوصلني إلى دار الضياف عند جدي الحاج،

وكـان الوقـت مسـاء، فمـا أن قطعنـا العتبـة، حتـى داهمتنـا بقـرة، ونطحتنا، لتفزع أمي من المطبخ، وتنقذنا.

ربما كنت في الثالثة من عمري، والحادثة راسخة في ذهني، وإن كانت بعض التفاصيل، قد انمحت.

هنـاك بعـض، مزايـا فـي مثـل هـذا الطقـس، تشـفع للشـتاء بعـض قساوته.

مـن هـذه المزايـا، أن الطالـب، لا يحاسـبنا كثيـرا علـى الحضـور، خاصة إذا كان الثلج تجاوز حدا معينا. وأننا نصبح نائمين، دون أن يزعجنا أحد، بل، بالعكس، تعمل أمهاتنا على أن لا نغادر الفراش، فنحدث لهن انشغالات جديدة.

أروع مـا فـي الشـتاء، هـو عنـدما تتجمـع الأسـرة حـول الكـانون. البعض يمد يديه، ثم يمسحهما على وجهه، ماسكا أرنبة أنفه، بسبابته وإبهامـه منستنشـقا هـواء دافئـا. وبعضـنا يقـرب وجهـه مـن الجمـرات، ليتلقـى أنفـه المحمر، بعض الـدفء، فـي انتظـار إحضـار العصـيدة، وهي سميد يتعقد في الماء الغالي، إلى أن يصير عجينة مطواعة، يسقى بكميات من السمن المعتق، ويخلط، إما بالسكر، وإما بالعسل، وإما، وهذا هو الشائع بمعجون التمر (الغرس). ويذر عليه الفلفل الحار.

يتلقى الجسم ما يحتاجه من الدهنيات والنشويات، والسكريات، ويواجه البرد القاسي.

في المساء، غالبا ما نتعشى العيش، وهو كسكس غليظ، يُرد في القدر بعد أن يفور ليتشبع بالمرق، المُعدّ، بكل أنواع البقول، وخاصة بالقديد، وهو لحم جاف مملح، من بقايا أضحية العيد، والكليلة، وهي لبن مجفف، أو غير ذلك.

يقول جدي عن العيش، بعد أن نفرغ القصعة الكبيرة: ما كدنا نأكله حتى أكلنا، بحرارته. سننتقم منه الليلة القادمة.

ليالي الشتاء طويلة، وإذا كان الجو غائما، فإنها تبدأ مع العصر، ولا تكفي حكايات، الأمهات والعجائز، لتقصيره، ومهما تطل الحكاية، فإن الليل والملل يطولان أكثر. ولا تنفع سوى أحلام اليقظة اللذيذة، والسهر مع النجمات.

بين الوجبات تمتلئ جيوبنا بالكنتيشي، فنظل نتغذى.

سرعان، ما تنتهي الليالي السود، وتأتي الليالي البيض، ويقال إن السود، هي الليالي الحسام، وكثيرا ما حصل الخلاف بين حفظة القرآن، حول عددها، أهي سبع أم ثمان.

يشرع النهار في التنفس يوما بعد يوم، وتبكر عصافير القرميد، (الزاوش)، بالبحث عن بعضها، ثم بالبحث عن أعشاشها، أو أماكن جديدة لتقيم فيها أعشاشا جديدة.

يظل البرد، يلازم أصباح الشتاء المولية، وأصباح الربيع القادمة، إلى أن تتغير تماما صفحة الأرض.

نبتهج بالربيع، بقدر ما أعارته الشتاء من مطر وثلج، ننسى زمهريرها، بسرعة، ولا نتردد في شكرها والثناء عليها.

تخضر جنبات الطريق، أولا، ثم الأرض المحروثة، أما العطايل، وهي التي تأجل حرثها إلى سنة قادمة، كي لا ترهق، وكي تظل مرتعا للأنعام، فأنها تتحلى بآلاف الألوان، حتى لتبدو زربية من زرابي الجنة، مبثوثة فنخرج إلى الحقول، بحلواء، هي عبارة عن كسرة مشحونة بالغرس، نسميها المبرجات، وبخبزة صغيرة مستديرة، مزوقة بأصفر البيض، لكل واحد منا، ونلتف على الحلواء فننهي أمرها، ثم ندشن اليوم الأول من الربيع كذلك، بلعب الكرة أو البف.

كل واحد من أطفال وشباب الدوار، له قوسه المصنوع من الخشب،، وهو حسب السن، يكبر ويصغر، ويغلظ ويرق نعده، في آخر فصل الشتاء.

الكرة قطعة صغيرة من الخشب أعدت بإتقان، لتتلقى ضربات القوس، الأرضية أو السماوية، فتصفِّر وتنطلق نحو وجهتها.. أما البف فهو أكبر قليلا من الكرة، ومصنوع من شعر (السبيب) الدواب.

تُلعب الكرة بصفة خاصة من طرف الكبار، ويتقابل فيها فريق دوار ضد فريق دوار آخر، وعدد الفريق غير محدد.. كما أن وقت اللعب قد يدوم ساعات وقد يتواصل أياما.

الربيع هو الفصل الوحيد الذي نستقبله باللعب، فما عدا الاهتمام بالأنعام، ليس هناك عمل جاد يقوم به الرجال. أكثر من اللعب. والبحث عن كل ما يؤكل من النباتات، من "تافغة" و"قرن جدي" و"تيلفاف"، و"تالما"، و"تيلجومين"، وما إلى ذلك من نباتات، لا نعرف حتى اليوم، عربا وبربرا، أسماءها إلا بالبربرية.

تتعدد قطعان الغنم، ويظهر من بينها خرفان، يغلب عليهم اللون الأبيض، تضيف بثغائها، إلى بهجة الربيع، براءة، ودفئا، وحيوية.

تقام عند الجدار الشمالي، شرق البئر، وبعيدا عن المطامير، المدفونة بإتقان، تظاهرة تلقيح وتخصيب الحيوانات ببعضها، الخيول، الأبقار، الحمير.

تتجمع الفحول، مع مشغليها، ويسمى الواحد منهم الهدّاد، وتجري كل العمليات، أمام أبصارنا، بصفة اعتيادية، وطبيعية، لا شيء فيها

يثير غرابتنا، تماما، كما لو أن الأمر يتعلق بديك فحل ودجاجة، أو بذبابتين.

لكن جو التجهمر، والحركات النشيطة، للهدادين، وهم عادة قصار القامة، غلاظ، يروحون ويجيئون تحت الفحل، يحرشونه، ويستجدونه، بمختلف الوسائل أن يتشجع قليلا، فيكسب عشاءه متوسلين: "زر جيب عشاك"...

ما يجعلنا ننقسم إلى فريقين، فريق يناصر الهداد، وفريق يناصر الحيوان المسكين. ونتراهن بالكنتيشي.

الخضرة المنبسطة، وأشعة الشمس الدافئة، كل ذلك، يبعث البهجة في نفوسنا. ويشعرنا بالتجدد والتواصل.

***

لا أدري في أي فصل كنا، ولا في أية سنة، لربما كنا صيفا، وأن ذلك كان قبل الحرب العالمية الثانية، قبل أن ينزل الأمريكان بدوارنا، ويغطوا السطوح بسحابة من الخيم المغبرة الدكناء، ويروحوا يتجولون بسياراتهم الجيب المغطاة بباش كاكي أيضا، أرتالا طويلة منتظمة، تشبه تماما أرتال النمل الطويلة.

تقرر أن نرحل. ننفصل نهائيا عن دار جدي، إلى دار البايلك، بدوار لا يبعد عنا سوى ببضع كلمترات.

مع الفجر، وكانت نجمتي ما تزال تشع، تجمّع أعمامي وأولاد عمي الدراجي، وبحوت، تحت إمرة أبي، وقيادة عمي حمو.

أحضروا الشاريو، وربطوا به ثيرانا عتيدة، وملأوه أثاثا، وأحضروا الفورغو، وربطوا به خيولا قوية، وأضافوا إليه ما تبقى من الأثاث، وأركبونا.

انطلقت القافلة، وظل بصري معلقا بنجمتي، أبادلها الحديث عن دراجة ارجم أوالزين، وهل يمكن أن تطير، ما دامت مثل العصافير، ليس لها سوى عجلتين؟ وعن فتيحة، وهل تظل في مكانها، مهما تغير سكننا، فتطمئنني، بأنها خلقت لكي لا تتخلى عني، أنا بالذات، وأنها كانت في انتظاري قبل أن يولد أي واحد في هذه الدنيا.

ظلت نجمتي وفية، تتبعنا كلما تحركنا نحو الجنوب، إلى أن نمت لأستيقظ في الصباح، فأجد نفسي لأول مرة، بعيدا عن العش الذي فتحت عيني فيه.

دار الحاج مُحند أونيس.

***

أوقد أحمد النور وهو داخل، فقابلته القنينتان، وقابلني أنا ديوان الشاعر الفرنسي، فرنسيس كومب، "ممتهنو الربيع" فمددت يدي أتصفحه، بعد أن قررت أن أترجمه.

أُبعد حل الانتحار، نهائيا، وعوض بمهمة جديدة.. هي التفرغ للأدب، وللثقافة العربية، في هذا البلد المستهدف: خلية وحيدة في حزب وحيد، هو الحزب الذي أطلق عليه فيما بعد اسم: عمي الطاهر.

وابتسمت، وأنا أتصور أن كل مسؤول يعين على رأس حزب النظام، الحزب وحيد الخلية أيضا، عبارة عن هداد، يحرش الفحل متوسلا: زر. جيب عشاك وعشانا.

الهوامش

1. تولى مناصب عديدة في الحزب والدولة آخرها رئيس مجلس الأمة. توفي بمرض عضال.
2. تتكون هيكلة حزب جبهة التحرير من القسمة فالاتحادية فالمحافظة فالجهاز المركزي
3. الرائد سليمان في جيش التحرير الوطني، عضو مجلس الثورة في تشكيلة بومدين، تولى مسؤولية جهاز الحزب، ثم انسحب معارضا للإصلاح الزراعي ومات في المهجر موتة غامضة، من حزب البيان قبل الثورة.

4. عضو المكتب السياسي لحزب جبهة التحرير سجن وعذب بعد الانقلاب شهر بالتروتسكية، من أهم المؤرخين المعاصرين ، يعيش في فرنسا منذ السبعينات.
5. عضو المكتب السياسي مسؤول التوجيه والإعلام في ج. ت. و ، سجن وعذب بعد الانقلاب، يشتغل حاليا في المحاماة.
6. مسؤول الحزب اعتقل بعد الانقلاب وأطلق سراحه في مطلع السبعينيات. اعتزل السياسة.
7. مسؤول محافظة قسنطينة قبل أن يحال على الرقابة وتولى مناصب حزبية أخرى حتى أواخر الثمانينات.
8. من عمال الميناء، ومن مؤسسي الاتحاد العام للعمال الجزائريين في 1956 ، سجنته فرنسا، حتى 1960، من ضحايا الانفجار الذي استهدف عمال الميناء من طرف المنظمة الإرهابية OAS تولى الأمانة العامة للاتحاد العام للعمال الجزائريين من 1962 الى 1964.
9. أحد إطارات الثورة، تولى منصب وزير الثقافة والإعلام ورئاسة الحكومة، يرأس حاليا حزب التحالف الوطني.
10. رئيس جهاز المخابرات في عهد بومدين، تولى منصب وزير ثم رئيس حكومة، واغتيل وهو رئيس حزب، في 1994.
11. أحد الشيوعيين البارزين، صحفي وكاتب، من قادة حزب الطليعة الاشتراكية، عاش في الحياة السرية من 1965 إلى 1975، تقريبا.
12. رائد في جيش التحرير الوطني، من إطارات الولاية الثالثة التاريخية، معطوب حرب، لعب دورا هاما في إبعاد ذوي الماضي المشبوه من الحزب.

شنوة الشاطئ

شاطئ بن حسين 15 أوت 2006